htm



الكلية الإكليريكية بالأنبا رويس
تقدم

دروس روحية
من
الميلاد
والغطاس

من محاضرات نيافة الأنبا شنوده



بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد



قدمنا لكم فى العام الأسبق أيها الاخوة الأحباء « تأملات فى الميلاد » تشمل محاضرة طويلة عن اخلاء الرب لذاته ومحاضرات أخرى عن « ملء الزمان » ، ولقب «عمانوئيل» أى الله معنا ، وأسئلة عن الميلاد معها اجابات القديسين عنها.

ونقدم لكم فى هذه السنة محاضرات أخرى ألقاها نيافة الأنبا شنوده بالقاعة المرقسية بالأنبا رويس سنة ١٩٦٦ عن أسباب حلول الرب بيننا ، ومصالحة السماء والأرض ، ودروس روحية فى حياة العذراء وحياة القديس يوحنا المعمدان ...

ونرجو أن يمنح الرب معونة ووقتا لمتابعة نشر باقى المحاضرات. وتحت الطبع حاليا كتابان من الحجم الكبير أحدهما هو كتاب « حياة التوبة والنقاوة » والآخر هو كتاب « تأملات فى سفر نشيد الاناشيد » .

وكل عام وجميعكم بخير . صلوا عنا .

لجنة أصدقاء الكلية الاكليريكية



صاحب القداسة والغبطة البابا كيرلس السادس
بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

فهرست

صفحة

الفصل الأول

لماذا حلَّ الربُّ بيننا ؟

لماذا حل المسيح بيننا :

ونحن نحتفل بميلاد المسيح من العذراء ، لعلنا نتساءل فيما بيننا : ما هي الأسباب التى دعت رب المجد أن يتخذ جسدا ويحل بيننا ، ويصير فى الهيئة كانسان ، ويولد من امرأة كبنى البشر ؟

لا شك أن الفداء هو السبب الأساسى للتجسد • جاء الرب الى العالم ليخلص الخطاة ، جاء ليفديهم ، جاء ليموت وليبذل نفسه عن كثيرين • هذا هو السبب الرئيسى الذى لو اكتفى المسيح به ولم يعمل غيره ، لكان كافيا لتبرير تجسده •

جاء المسيح ليوفى العدل الالهى ، وليصالح السماء والأرض •

ويمكننا أن نقول أيضا ـ الى جوار عمل الفداء والمصالحة ـ ان السيد المسيح قد جاء لينوب عن البشرية • وكما ناب عنها فى الموت ، ينوب عنها أيضا فى كل ما هو مطلوب منها أن تعمله • ان الانسان قد قصر فى كل علاقاته مع الله ، فجاء « ابن الانسان » لينوب عن الانسان كله فى ارضاء الله •

وفى فترة تجسده أمكن للرب أن يقدم للبشرية الصورة المثالية لما ينبغى أن يكون عليه الانسان كصورة لله ومثاله •

قدم القدوة ، والمثال العملى . حتى أن القديس اثناسيوس الرسولى قال انه لما فسدت هذه الصورة التى خلق الله بها الانسان ، نزل الله ليقدم لهم الصورة الالهية الأصيلة ...

وأيضا لما أخطأ الناس فى تفسير الشريعة الالهية ، وقدموها للناس حسب مفهومهم الخاطىء ، ومزجوا بها تعاليمهم الخاصة وتقاليدهم ، **جاء الرب ليقدم للبشرية الشريعة الالهية كما أرادها الرب ، نقية من الأخطاء البشرية فى الفهم والتفسير ...**

وسنحاول الآن أن نتناول هذه الأسباب جميعها، ونتحدث عنها بمزيد من التفصيل ، ونرى ما يمكن أن نستفيده من دروس روحية لحياتنا خلال هذا الشرح .

الفداء هو السبب الأساسى للتجسد

لقد أخطأ الانسان الأول ، وكانت خطيته ضد الله نفسه :
فهو قد عصى الله وخالف وصيته . وهو أيضا أراد أن يكبر وأن يصير مثل الله عارفا الخير والشر (تك ٣ : ٥) . وفى غمرة هذا الاغراء نرى أن الانسان لم يصدق الله الذى قال له عن شجرة معرفة الخير والشر « يوم تأكل منها موتا تموت » (تك ٢ : ١٧) . وعلى العكس من هذا صدق الحية التى قالت « لن تموتا » . وبعد الأكل من الشجرة نرى أن الانسان قد بدأ يفقد ايمانه فى وجود الله فى كل مكان وقدرته على رؤية

كل مخفى ، وظن أنه ان اختبأ وسط الشجر يستطيع أن يهرب من رؤية الله له . وفى محاسبة الله للانسان بعد الخطية، نرى الانسان يتكلم بأسلوب لا يليق ، اذ يحمل الله جزءا من مسئولية خطيته فيقول لـه « المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى » (تك ٣ : ١٢)

انها مجموعة أخطاء موجهة ضد الله : عصيان الله ، ومنافسة الله في معرفته ، وعدم تصديق الله فى وعيده، وعدم الايمان بقدرة الله ، وعدم التأدب فى الحديث مع الله .

أخطأ الانسان ضد الله ، والله غير محدود ، لذلك صارت خطيته غير محدودة . والخطية غير المحدودة ، عقوبتها غير محدودة . وان قدمت عنها كفارة ، ينبغى أن تكون كفارة غير محدودة ، ولا يوجد غير محدود الا الله . لذلك كان ينبغى أن يقوم الله نفسه بعمل الكفارة ...

هذا هو ملخص المشكلة كلها فى ايجاز ...

لقد أخطأ الانسان ، وأجرة الخطية هى الموت (رو٦:٢٣). وكان لابد أن يموت الانسان ، وبخاصة لأن الله كان قد أنذره بهذا الموت من قبل أن يتعدى الوصية ، اذ قال له « وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » . وهكذا استحق حكم الموت ، وكان لابد أن يموت .

كان موت الانسان هو الوفاء الوحيد لعدل الله . وان لم يمت الانسان ، لا يكون الله عادلا ، ولا يكون الله صادقا فى انذاره السابق ...

هذه النظرية يشرحها القديس اثناسيوس الرسولى باستفاضة فى كتابه « تجسد الكلمة » . واذ يشرح لزوم موت الانسان ، يشرح من الناحية المضادة المشاكل التى تقف ضد موت الانسان . فماذا كانت تلك المشاكل ؟

كان موت الانسان ضد رحمة الله ، وبخاصة لأن الانسان قد سقط ضحية الشيطان الذى كان أكثر منه حيلة ومكرا!!

وكان موت الانسان ضد كرامة الله ، اذ انه خلق على صورة الله ومثاله ، فكيف تتمزق صورة الله هكذا ؟!

وكان موت الانسان ضد قوة الله ، كأن الله قد خلق خليقة ولم يستطع أن يحميها من شر الشيطان ! وهكذا يكون الشيطان قد انتصر فى المعركة !!

وكان موت الانسان ضد حكمة الله فى خلقه للبشر . وكما يقول القديس اثناسيوس الرسولى انه كان خيرا للانسان لو لم يخلق ، من أن يخلق ليلقى هذا المصير !!

وأخيرا كان موت الانسان ضد ذكاء الله . اذ كيف توجد المشكلة ولا يستطيع عقل الله أن يوجد لها حلا !!

اذن كان موت الانسان ضد رحمة الله ، وضد كرامة الله، وضد قوة الله ، وضد حكمته وذكائه . وكان لابد لحكمة الله أن تتدخل لحل هذا الاشكال ...

وهكذا تدخل اقنوم الابن لحل الاشكال · والابن كما يقول بولس الرسول هو « حكمة الله وقوة الله » (١ كو ١ : ٢٤)، ويسميه سفر الأمثال « الحكمة » (أم ٩ : ١)

والآن نسأل : كيف أمكن لحكمة الله حل هذا الاشكال ؟

كان الحل هو الكفارة والفداء ، لابد أن يموت أحد عن الانسان ، فيفديه ، لانقاذه · ولم يكن يصلح لهذا الفداء أى كائن آخر ، غير الانسان ذاته ، لا ملاك ، ولا حيوان · ولا روح ، ولا أية خليقة أخرى ··· فلماذا ؟

كان لابد أن يموت الانسان لسببين :

أولا : لأن كل مخلوق محدود ، لا يمكن أن يقدم كفارة غير محدودة ، توفى العقوبة غير المحدودة ، للخطية غير المحدودة ·

ثانيا : لأن الحكم صدر ضد الانسان ، فيجب أن يموت الانسان ·

وكان الحل الوحيد هو التجسد : أن ينزل الله الى عالمنا مولودا من امرأة ، فهو من حيث لاهوته غير محدود كاله ، يمكنه أن يقدم كفارة غير محدودة ، تكفى لمغفرة جميع الخطايا لجميع الناس ، فى جميع الأجيال · وهو من حيث ناسوته ، يمكنه أن ينوب عن الانسان المحكوم عليه فى دفع ثمن الخطية· من أجل هذا السبب كان السيد المسيح يتعمد أن يسمى نفسه « ابن الانسان » فى كثير من المجالات ···

هذا اذن هو السبب الأساسى لولادة المسيح من العذراء . جاء ليحمل خطيتنا ، ويموت عنها ، لينقذنا من عقوبتها ...

ان عرفنا هذه الحقيقة ، فما هى الدروس الروحية التى يمكن أن نتعلمها منها فى حياتنا ؟ هذا ما نود الآن أن نتأمل فيه ...

تأمل ...

تأمل أيها الأخ المبارك فى أن كل خطية ترتكبها هى موجهة ضد الله ذاته ، ولا تختلف فى دينونتها عن خطية آدم وحواء. هى مثل خطيئتهما غير محدودة ، لأنها موجهة ضد الله غير المحدود . وهكذا فان عقوبتها غير محدودة ، ولا تغفر الا بكفارة غير محدودة ...

كل خطية ترتكبها هى عصيان لله . هى نوع من التحدى لله وعدم المبالاة بوصاياه ، بل هى ثورة عليه وانضمام لخصمه الشيطان ... لذلك فكل خطية ترتكبها تحمل معنى عدم محبة لله ، لأنه يقول : من يحبنى يحفظ وصاياى
(يو ١٤ : ١٥)

لذلك عندما أخطأ داود وزنى وقتل ، لم يقل أخطأت ضد اوريا الحثى وزوجته ، بل قال لله « **لك وحدك أخطأت ، والشر قدامك صنعت** » (مز ٥٠ : ٤) ... حقا ان الخطية خاطئة جدا كما يقول الكتاب (رو ٧ : ١٣) .

وكل خطية ترتكبها يحملها المسيح ، لأنه هو « حمل الله الذى يرفع خطية العالم كله » (يو ١ : ٢٩) « كلنا كغنم ضللنا ، ملنا كل واحد الى طريقه · والرب قد وضع عليه اثم جميعنا » (أش ٥٣ : ٦)

انك يا أخى ربما تستسهل الخطية ، وتستسهل غفرانها، وتظن أنه بمجرد الاعتراف بها تنتهى · ولا يتناول تفكيرك كيف تغفر هذه الخطية بالاعتراف · لذلك تجد الأمر سهلا ولا تشعر بفداحة ما تفعله ··!!

خطيئتك أيها الأخ لا تغفر الا بدم المسيح ، لأنه « بدون سفك دم لا تحدث مغفرة » (عب ٩ : ٢٢) · فما هو موقف الكاهن من الغفران اذن ؟ هل مجرد قراءة التحليل أو عبارة « الله يحاللك » هى كل شىء ؟! كلا بلا شك · فمجرد هذه الكلمة وحدها لا تكفى ··

عندما يعطيك الكاهن المغفرة، انما يقوم بعملية تحويل· يحول الخطية من حسابك الى حساب المسيح · ينقل الخطية **من على رأسك الى رأس الحمل الذى يحمل خطايا العالم كله· وحينئذ يمحوها المسيح بدمه ·**

بل اتجرأ وأقول ان المسيح نفسه عندما كان يقول لانسان « مغفورة لك خطاياك » لم تكن هذه العبارة وحدها تكفى بدون دم الرب· انما قول السيد الرب لانسان« مغفورة لك خطاياك » معناها « اننى قبلت أن أموت عن هذه الخطايا،

وقبلت أن أمحوها بدمى • لذلك اعتبرها مغفورة ، لأنها مغموسة فى دمى » • لأنه لو كانت مجرد عبارة المغفرة تكفى لماذا اذن كان التجسد ، ولماذا اذن كان الصلب والفداء ؟•

بسبب خطيتك أيها الأخ ، أخلى الرب ذاته ، وأخذ شكل العبد ، وولد كانسان ، واحتمل كل ضعف البشرية•
من أجل خطيتك صار طفلا ، ومن أجلها هرب من هيرودس الى مصر ، ومن أجلها جرب من الشيطان ، ومن أجلها اضطهده اليهود وأهين وشتم وبصق عليه وضرب وصلب ومات • ان عرفت كل هذا ، فكيف تحتمل مشاعرك أن تخطىء ؟!

يجب أن تعلم جيدا أن كل خطية لابد أن تقف أمام عدل الله ، لكى تعطى حسابا أمامه « ومخيف هو الوقوع فى يدى الله الحى » (عب ١٠ : ٣١)

لذلك فى يوم ميلاد المسيح ، تأمل فى محبته لك ، وفى سعيه لخلاصك ، وكيف أنه من أجلك جاء •

حقا لقد جاء المسيح ليخلص العالم (يو ٣ : ١٧) • جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك ••• فهل كان هذا هو كل شىء ؟ كلا ، فاننا نلاحظ شيئا آخر وهو أنه قد جاء لينوب عن البشرية •

أتى المسيح لينوب عن البشرية

انه ناب عنا فى دفع ثمن الخطية ، فى الموت ، فمات عنا • ولكن هذا لم يكن هو الشىء الوحيد الذى ناب عنا فيه • بل انه ناب عنا فى كل عمل صالح ، فى تكميل الناموس كله ... فاختتن وهو غير محتاج الى الختان ، وصام وهو غير محتاج الى الصوم، واعتمد وهو غير محتاج الى العماد ، وهكذا دواليك.

ولعل نيابة الرب عن الانسان هى التى جعلته يسمى نفسه فى أحيان كثيرة « **ابن الانسان** » ، مشيرا الى أنه جاء نائبا عن الانســـان أو نائبا عن البشرية فهو ليس ابن فـلان من الناس ، وانما هو ابن الانسان عموما • وقد ناب عن الانسان فى موته وفى حياته وفى كل ما كان مطلوبا منه ••• » •

● **ولنبدأ أولا بموضوع العماد ، كمثال ...**

ذهب الســيد المســـيح الى يوحنا ليعتمد منه • ولكنه بلا شك لم يكن محتاجا مطلقا الى العماد • معمودية يوحنا كانت للتوبة ، والتوبة عمل يقوم به الخطاة وليس الأبرار • ويسوع المسيح القدوس البار ، الذى هو وحده بلا خطية ، **لم يكن محتاجا الى التوبة ، وبالتالى لم يكن محتاجا الى معمودية يوحنا •**

كان يوحنا صوتا صارخا فى البرية ينادى « توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) . « اصنعوا ثمارا تليق بالتوبة » « كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار » . وهذا الصوت لم يكن بأى حال موجها الى السيد المسيح ، الذى اعترف له يوحنا قائلا « أنا محتاج أن أعتمد منك » (متى ٣ : ١٤) . ويوحنا كان يأتى اليه الناس ليعتمدوا « معترفين بخطاياهم » (متى ٣ : ٦) والسيد المسيح لم تكن له خطية يعترف بها ...

فما دام لم يكن محتاجا الى التوبة ، ولا الى المعمودية ، فلماذا ذهب الى يوحنا ؟ ولماذا اعتمد ؟

لقد فعل ذلك « ليكمل كل بر » ، لينوب عنا فى اطاعة الناموس ، ان البشرية فشلت فى ارضاء الله الآب ، فجاء الابن يرضيه . يريه «ابن الانسان» وقد وقف كاملا أمامه ... فناب عنا فى تقديم هذه التوبة ... كما سينوب عنا فى أخر الزمان فى تقديم خضوع البشرية للآب . وهكذا يقول الرسول « ومتى اخضع له الكل ، حينئذ الابن أيضا سيخضع للذى أخضع له الكل » (١ كو ١٥ : ٢٨) .

ان الخطية كانت لها نتيجتان : هلاك الانسان ، واغضاب قلب الله . وجاء السيد المسيح ليصلح الأمرين معا : جاء ليخلص الانسان الهالك ، اذ ناب عنا فى الموت وفى دفع

ثمن الخطية . وجاء ليصالح قلب الله الغاضب بأن يقدم له ناموسا كاملا يرضيه ، وهكذا ناب عنا فى تكميل الناموس وفى كل عمل صالح . قام بالعملين معا : أرضى قلب الله ، بحياته الطاهرة ، وأنقذ حياة الانسان ، بموته الكفارى .

● وكما ناب المسيح عن البشرية فى التوبة والعماد وتكميل الناموس ، **ناب عنهما أيضا فى الصوم** . لم يستطع الانسان أن يكبح جماح جسده ، فأكل من طعام نهى الله عنه، فسقط . وجاء المسيح ليصلح هذا الخطأ ، فبدأ خدمته بالصوم حتى عن الطعام المحلل للجميع . نحن نصوم لنروض الجسد ونلجمه ونربيه . أما جسد المسيح فلم يكن جامحا حتى يكبح جماحة ، فلماذا اذن صام ؟ ونحن نصوم لكى تصفو الروح وتسمو . وروح المسيح فى صفائها وسموها ليست فى حاجة الى صوم يوصلها الى العلو الذى توجد فيه بطبيعتها . اذن لماذا صام ؟

لقد صام عنا ، أربعين يوما وأربعين ليلة . وفى ذلك الصوم قدم لله الآب ـ نيابة عنا ـ جسدا طاهرا لا يخضع لشهوة طعام ، استطاع أن يبرهن عمليا على أنه « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » (متى ٤ : ٤) .

لقد ناب المسيح عنا فى تقديمه للآب صورة للانسان الكامل المطيع لوصاياه . وفى نفس الوقت قدم للبشرية الصورة الالهية التى خلقوا على مثالها .

أتى ليقدم لنا الصورة الالهية

لقد خلق الانسان على صورة الله ومثاله (تك ١ : ٢٧) في البر والقداسة والكمال ، ولكنه شوه تلك الصورة الالهية بخطاياه . لسنا نقول هذا عن مجموعة خاطئة معينة من الناس ، وانما عن الكل « الجميع زاغوا وفسدوا معا ، ليس من يعمل صلاحا ، ليس ولا واحد » (مز ١٤ : ٣) . وهكذا فقدت الصورة الالهية من الكون ... لعل تلك الصورة هي التي كان يعنيها ديوجين الفيلسوف الذى رآه الناس ممسكا مصباحا في النهار وهو يجول يبحث عن شيء : فسألوه « عن أي شيء تبحث ؟ » . فأجاب « أبحث عن أي انسان » !! ان الانسان في وضعه الأصلي — كصورة لله — لم يكن موجودا .

فأتى السيد المسيح ليقدم للناس هذه الصورة الالهية ، بمثال عملي أمامهم يرونه فيحاكونه ... وهكذا قال لهم فيما بعد « لأني أعطيتكم مثالا ، حتى كما صنعت أنا بكم تصنعون أنتم أيضا » (يو ١٣ : ١٥) . بهذه الصورة رآها القديس بطرس الرسول « تاركا لنا مثالا ، لكي تتبعوا خطواته » (١ بط ٢ : ٢١) . وبنفس المعنى يقول معلمنا يوحنا الرسول « من قال انه ثابت فيه ، ينبغي أنه كما سلك ذاك يسلك هو أيضا » (١ يو ٢ : ٦) ...

قدم لنا صورة للانسان المنتصر على الشيطان ، ليعالج

بها صورة آدم وحواء اللذين انهزما أمام اغراء الحية وايحائها. وهكذا بدأ خدمته بأن سمح للشيطان أن يجربه ، ليس مرة واحدة كما فعل أبوينا الأولين ، وانما ثلاث مرات (متى ٤) ، أعقبتها فيما بعد تجارب لا تعد . واذ كانت كلمة الله ووصيته على لسان الانسان الأول ، ولكنها ليست ثابتة فى قلبه ، ولا منفذة عمليا فى حياته ، كانت وصية الله وكلمته قوية وفعالة فى فم المسيح ، هزم بها الشيطان فلم يستطع أن يرد عليه .

وفى حياة السيد المسيح قدم لنا صورة للانسان الكامل ، الذى استطاع أن يتحدى جميع مقاوميه قائلا « من منكم يبكتنى على خطية » (يو ٨ : ٤٦) . ويقول عنه بولس الرسول انه « مجرب فى كل شىء مثلنا بلا خطية » (عب ٤ : ١٥) . وقال عنه أيضا انه « قدوس بلا شر ولا دنس ، قد انفصل عن الخطاة ، وصار أعلى من السموات » (عب ٧ : ٢٦) . لذلك عندما بشر الملاك العذراء بميلاده قال لها « القدوس المولود منك ... » (لو ١ : ٣٥)

هذا القدوس ، اذ لم تكن فى حياته خطية يموت بسببها، مات عن خطايانا نحن واستحق أن يكون فادى البشرية .

يمكننا أن نتأمل حياته المقدسة ، ونأخذ لأنفسنا درسا من كل عمل ومن كل قول . كانت حياته نورا يرشدنا الى ما ينبغى أن نعمله . لذلك يسميه القديس يوحنا « النور الحقيقى الذى يضىء لكل انسان » (يو ١ : ٩) .

واذ كانت خطية الانسان الأولى هى الكبرياء ، لذلك جاء المسيح يلقننا درسا فى التواضع .

درس عجيب فى التواضع

سقط أبوانا الأولان فى الكبرياء عندما قبلا اغراء الحية فى قولها « تصيران مثل الله ... » (تك ٣ : ٥) ومن قبلهما سقط الشيطان فى هذه الكبرياء ذاتها اذ قال فى قلبه « اصعد الى السموات ... أصير مثل العلى » (اش ١٤ : ١٣ ، ١٤) . فجاء المسيح يرد على هذه السقطة .

الانسان الترابى أراد أن يرتفع ويصير مثل الله ، فاذا بالله ينزل ليصير شبه الناس !! الانسان أراد أن يكبر ذاته ، فعالجه الرب بأن أخلى ذاته . مقاييس العظمة كانت مرتبكة فى حياة الانسان . فأصلحها له الرب . كان يرى العظمة فى الكبرياء ، فشرح له الرب عمليا كيف أن العظمة فى التواضع . ووضع ذلك المبدأ العجيب « أكبركم يكون خادما لكم . فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » (متى ٢٣ : ١١ ، ١٢) .

كان الناس يقيسون عظمة الشخص بمقدار انتفاخه وتوقير الناس له . لذلك كان الكتبة والفريسيون « يحبون المتكأ الأول فى الولائم ، والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات

فى الأسواق ، وأن يدعوهم الناس سيدى سيدى » (متى ٢٣ : ٦ ، ٧) • فجاء السيد المسيح يعطى مثالا آخر للعظمة، العظمة الهادئة المتضعة غير المنتفخة البعيدة عن الكبرياء ومديح الناس ، عظمة القلب النقى المنتصر على المجد الباطل، عظمة البساطة والوداعة • ولأول مرة بدأنا نسمع عن جمال الاتضاع •••

قبل المسيح كانوا يرون العظمة ، كعظمة الملوك ، فى فخامتهم وحسن منظرهم ، مثل شاول الملك الذى « من كتفه الى فوق ، كان أطول من كل الشعب » (١ صم ٩ : ٢) • كانوا يرون العظمة فى المركبات والسيوف واحاطة الشخص نفسه بالجنود ورجال الحاشية والعبيد والخصيان •• !! **فأتاهم السيد المسيح بصورة أخرى للعظمة ، عظمة مالك السموات والأرض الذى ليس له أين يسند رأسه** ، عظمة الشخص الذى ليس له مكان اقامة ، وليس له منصب ولا وظيفة فى المجتمع ، ومع ذلك يهز المجتمع كله بأصابعه !! ••• لقد جاء المسيح بصورة أخرى للعظمة لم يرها الناس من قبل •••

كانوا يفهمون الكرامة بأن يجلس العظيم فلا يستطيع أحد أن يقترب اليه ، أو أن يمشى فى هيبة ووقار لا تقرب منه امرأة ولا طفل ••• **لذلك عندما اقترب الأطفال من المسيح ، انتهرهم التلاميذ !!** (لو ١٨ : ١٥) • فقال لهم الرب « دعوا الأولاد يأتون الى ولا تمنعوهم ، لأن لمثل هؤلاء ملكوت

الله » ... وتعجب التلاميذ ، وكأنهم يفكرون فى قلوبهم « ما هذا الذى نراه منك يا رب ؟! انك كبير عن هذا المستوى، نجلسك على عرش عظيم ، والناس يسجدون لك من بعيد !! لايستطيع الكبار أن يقتربوا اليك، فكم بالأولى الأطفال !!»... وكان المسيح يجيبهم عن كل هذا « دعكم من هذه الصورة الخاطئة التى أخذها الناس عن العظمة » ...

نفس الأمر تكرر فى بيت الفريسى عندما أتت امرأة خاطئة وبللت قدمى المسيح بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها ، وكانت تقبل قدمه وتدهنهما بالطيب (لو ٧ : ٣٨) • فتأفف الفريسى ، وتذمر فى قلبه ... **كيف يقبل المسيح أن تلمسه امرأة خاطئة وتقبل قدميه ...!** ولكن السيد المسيح دافع عن المرأة ، ورآها أعظم من الفريسى ، لأنها أحبت كثيرا ، فغفر لها الكثير ... لم تكن العظمة فى نظر المسيح هى الترفع عن الناس والتعالى على الضعفاء ، وانما محبة الناس والعطف عليهم ...

نفس الانتقاد وجهوه الى الرب فى جلوسه مع الخطاة والعشارين ، كما لو كان فى جلوسه معهم أو اشتراكه فى موائدهم ، انتقاص من قدره وكرامته • أما الرب فكان يرى الكرامة كل الكرامة فى البحث عن هؤلاء الضالين وانقاذهم مما هم فيه • وهنا تبدو كرامته كراع ، ومعلم ...

كل هذا يقنعنا بأن السيد المسيح ـ فى مجيئه الينا ـ كانت له الى جوار الفداء أسباب أخرى ، وان كانت جانبية ...

أسباب أخرى لمجيئه

لقد جاء السيد المسيح لكى يصلح التعليم الفاسد الذى وقع فيه الناس ، ولكى يصحح المفاهيم الخاطئة للشريعة وللناموس وللمبادىء العامة فى الحياة ...

ذلك لأن الكتبة والفريسيين وزعماء اليهود وكهنتهم ورؤساءهم كانوا قد شوهوا كل شىء ، وفسروا الدين حسب مزاجهم الخاص ، وأبطلوا وصية الله بسبب تقاليدهم (متى ١٥ : ٦) . ووضعوا على أكتاف الناس أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ، وأغلقوا ملكوت السموات قدام الناس ، فلا هم دخلوا ، ولا جعلوا الداخلين يدخلون (متى ٢٣) . من أجل ذلك وبخهم المسيح ، وكشف رياءهم أمام الناس . وقال عن أمثال هؤلاء المعلمين الكذبة « جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص » (يو ١٠ : ٨) . ذلك لأنهم غرسوا فى أذهان الناس وقلوبهم تعاليم خاطئة ومفاهيم منحرفة .

لهذا جاء المسيح ليقدم مفاهيم جديدة . جاء يقلب تلك الأوضاع ، ويقيم ثورة فى الحياة الدينية . أو كما قال للناس جئت لألقى نارا على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت » (لو ١٢ : ٤٩) . جاء يشعل ثورة ، ما قبلها ثورة ، ولا بعدها ثورة ... ثورة على الفهم الخاطىء للدين ، والفهم الخاطىء للمبادىء .

أقام المسيح دولة جديدة من الفكر العالى السامى ، لا يمكن أن يصل اليه تفكير البوذيين ولا تفكير الكنفوشيوسيين ولا تفكير البراهمة ولا تفكير الفلاسفة جميعا • جميع فلاسفة العالم انحنوا فى خضوع وفى توقير أمام تعاليم المسيحية • واذا بالمسيحية قد ارتفعت فوق كل تلك الفلسفات ، وغلبتها جميعا • غلبت الفلسفة ، وغلبت القوانين ، وغلبت الأنظمة الموجودة ، وغلبت الفكر العالمى • كل ذلك عن طريق جماعة من الصيادين الجهلة الذين لا فكر لهم ، ولكن لهم فكر المسيح • واستطاع هؤلاء أن ينشروا تعاليم الرب فى كل مكان « مستأسرين كل فكر الى طاعة المسيح » (٢ كو ١٠ : ٥) • حقا لقد قدم السيد المسيح نورا عجيبا للعالم •

نحن نفتخر ونفرح ونسر ، يمتلىء فمنا بركة وتسبيحا ، لأن المسيح أعطانا تعليما عظيما من هذا النوع يسمو على كل تعليم آخر • صدقونى لو كانت المسيحية كلها ، ليست فيها سوى هذه الآية الواحدة التى تقول « احبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم » (متى ٥ : ٤٤) • لو كانت المسيحية لا تحمل سوى هذه الآية الواحدة ، لكانت هذه الآية الواحدة تكفى ••• هاتوا كل تعليم الفلاسفة لا تجدونه يوازى هذه الآية فى سموها وعلوها وعمقها •••

لقد جاء المسيح الى العالم فبهر العالم بتعليمه •• يقول معلمنا القديس متى بعد تسجيله لعظة المسيح على الجبل

« فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بهتت الجموع من تعليمه . لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » (متى ٧ : ٢٨ و ٢٩) . كان تعليما لا يدخل الى الآذان والأذهان فقط ، وانما يخترق القلب ويستقر فيه ، بسلطان ... ذلك لأن « كلمة الله حية وفعالة ، وأمضى من كل سيف ذى حدين ... ومميزة أفكار القلب ونياته » (عب ٤ : ١٢) . كان يعطى التعليم . ويعطى معه نعمة لتنفيذه . وربما عن هذا قال يوحنا الرسول « لأن الناموس بموسى أعطى . أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا » (يو ١ : ١٧) .

لم يكن تعليم المسيح مبهرا للشعب فقط ، وانما للرؤساء أيضا ، حتى فى طفولته ... انه وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره ، جلس فى الهيكل فى أورشليم ، فى وسط المعلمين ، فى وسط الكتبة والكهنة والشيوخ وأعضاء مجلس السنهدريم « وكل الذين سمعوه ، بهتوا من فهمه وأجوبته » (لو ٢ : ٤٧) . ولما بدأ كرازته ، نسمع عن نيقوديموس أحد رؤساء اليهود وعضو مجلس السنهدريم ، انه جاء الى المسيح ليلا ، يسأل ويتعلم (يو ٣ : ١ ، ٢) ...

وفى سلطان المسيح فى التعليم ، وفى ثورته التعليمية ، نجده يقول فى سلطان : سمعتم أنه قيل ... وأما أنا فأقول لكم ... » (متى ٥) . من ذا الذى يستطيع أن يتكلم هكذا عن شريعة الله ؟! ولكنه المسيح ، الذى أنار عقولنا

بذلك السمو العجيب فى فهم الدين ، واستطاع أن يحول فكر البشرية وفهمها ...

الناس قبل مجيئه كانوا يفهمون أن القوة هى العنف ، فاعطاهم مثلا للقوة هو قوة المحبة الباذلة ، التى تبذل ذاتها عن الآخرين ، ومثلا آخر عن القوة ، هو قوة الروح فى الداخل.

والناس كانوا يفهمون الحرية بمعنى أن يفعل الانسان ما يشاء . فوضح لهم أن الحرية الحقيقية هى تحرر الانسان من الخطية وتحرره من عبودية الشهوة ومن سلطان الجسد ، بل تحرره من الذات ...

وفى تعليم المسيح أعطى الناس فكرة جديدة عن الله ذاته. كانوا ينظرون الى الله كقوة جبارة لا يستطيعون الدنو منها . حتى انهم عند اعلان الوصايا العشر على الجبل ، كانوا مرتعدين، « وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خر ٢٠ : ١٩) . أما فى مجىء المسيح ، فأراهم الله فى صورة أخرى . وأخذوا فكرة عن الله المحب الشفوق ، الوديع المتواضع ، الذى « لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته . قصبة مرضوضة لا يقصف ، وفتيلة مدخنة لايطفىء» (متى ١٢ : ٢٠) . الله الذى يجول بينهم كراع صالح يسعى فى طلب الضال ، وكطبيب يضمد الجروح ، وكنور حقيقى يشرق للضالين وغير العارفين ... هذه هى الصورة الجديدة التى قدمها لهم عن الله فأحبوه « والمحبة تطرح الخوف الى خارج » (١ يو ٤ : ١٨) .

لاجل هذا كله فرح العالم بمجىء الرب ٠٠٠ ووقف الملاك يحمل البشرى للرعاة قائلا « ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب » (لو ٢ : ١١) ٠٠٠ حقا انه فرح عظيم ، رأيناه واضحا على وجه سمعان الشيخ الذى حمل الطفل يسوع على ذراعيه وبارك الرب قائلا « الآن يا رب تطلق عبدك بسلام ، لأن عينى قد أبصرتا خلاصك الذى أعددته قدام وجه جميع الشعوب » (لو ٢ : ٢٩) ٠

على أنه ان كان كثيرون قد فرحوا بمجىء المسيح ، فان البعض قد حزن لمجيئه ٠٠٠ مثال ذلك هيرووس الملك ٠

مجىء المسيح أحزن هيرودس :

فى وسط أفراح البشر والملائكة بميلاد المسيح ، كان هناك قلب حزين ومكتئب لهذا الميلاد المجيد ٠ انه هيرودس الملك الذى فكر فى ذاته فقط ، ولم يشأ أن يفكر فى البشرية كلها وخلاصها ٠ أتاه المجوس وقالوا له « أين هو المولود ملك اليهود ؟ » ٠ فما أن سمع كلمة « ملك » حتى « اضطرب وجميع أورشليم معه » !! **أهو ملك حقا ؟ وهل يوجد ملك غيرى ؟! وكيف أتركه يملك ؟! ان هذا مستحيل** ٠٠٠ واضطرب هذا الملك المسكين ، واضطربت أورشليم كلها معه !!

مسكين أنت ياهيرودس ! هل ظننت فى جهلك أن المسيح قد جاء ينافسك فى الملك ؟! حقا انه ملك الملوك ورب الأرباب، ولكن مملكته ليست من هذا العالم (يو ١٨ : ٣٦) ٠ هل

أنت خائف لئلا يهز المسيح عرشك ، ويسلب تاجك ؟ اطمئن وافرح . ان لعبة التيجان تليق بالصغار أمثالك يلهون بها . **أما المسيح فهو أسمى من التيجان ، وأسمى من العروش .** السماء هي كرسيه . والأرض - بما فيها عرشك - هي موطئ قدميه (متى ٥ : ٣٤ - ٣٥) .

لقد جاء المسيح من أجلك أيضا ، ليحررك . يحررك من عبودية الذات ، ومن عبودية الشهوات . يحررك من اغراء التيجان والعروش . يجعل نفسك طليقة تسبح في السماء كالنسور ، تعلو فوق مستوى التيجان والعروش والأكاليل والنياشين ...

كان أحرى بهيرودس أن يفرح لمجيء المسيح، لو كان يفكر في خلاص نفسه . أو على الأقل كان يمكنه أن يفرح لأن النبوات قد تحققت في عهده . وهكذا بدلا من أن يذهب وينال بركة هذا المولود ، نراه قد اضطرب وحزن . ولم يقتصر الأمر على اضطرابه ، بل فكر أن يقتل الصبي !!

تقتله ؟! يا للهول ! أتقتل من في يده مفاتيح الحياة والموت ؟! ان حياتك كلها معلقة بأصبعه ، بل هي معلقة بمجرد مشيئته ...

العجيب أن هيرودس لم يفكر أن يقتل المسيح عن جهل ، بل عن معرفة ! لقد جمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب ، وسألهم أين يولد المسيح ؟ فقالوا له في بيت لحم اليهودية ،

وأوردوا له النبوءة . وصدق هيرودس النبوءة ، وفكر أن يقتل المسيح ! عجب هذا منك ياهيرودس . ان كانت هذه النبوءة حقا كما عرفت ، فهل أنت قادر أن تقف ضد الله ؟! وما معنى هذا الجنون فى الخوف الذى يدفعك الى قتل مائة وأربعة وأربعين ألفا من الأطفال الأبرياء ، لعل المسيح يكون واحدا منهم !!

ان هيرودس لم يستطع أن يفرح بالميلاد ، لأنه كان متمركزاً حول ذاته . كل تفكيره هو : كيف ترفع ذاته ، كيف يصير ملكا وحده ؟ كيف يتخلص من منافس له فى الملك ، حتى لو كان المسيح ؟! حتى لو كانت النبوءات تسند هذا المنافس وتقول انه لا تكون لملكه نهاية !

وأنت أيها الأخ ، هل أنت – مثل هيرودس – متمركز حول ذاتك ، أم هل تفكر فى المسيح وتفرح بمجيئه .

ان كنت تفكر فى ذاتك كيف ترتفع أو كيف تلهو وتتمتع ، فسوف تتعب من المسيح . ستشعر أن المسيح سيحطم أصناما داخل ذاتك ، أو سيحطم هذه الذات نفسها . ومثل هيرودس ستفكر كيف تقتل المسيح أو كيف تتخلص منه ...

لا تفكر أن هيرودس هذا كان شاذا وحده . كلا ، **فكل واحد يمكن أن يكون مثل هيرودس ، ولا فرق !**

انت أيضا تريد أن يكون لك سلطان وعظمة ورفعة . والمسيح يريد أن يملك عليك ، وأنت ترفض أن يملك . تريد أن تتصرف كما تشاء ...

يقولون لك « هو ذا المسيح قد جاء ليملك » . فتقول « أنا خائف من ملك المسيح هذا ، لأن ملك المسيح هو صليب سوف أحمله !! معناه أن شخصيتى ستضيع ،ويظهر المسيح. وأنا لست أريد أن تمحى شخصيتى ... » . وهكذا تردد عبارات الوجوديين الملحدين الذين يخشون وجود الله . والذين يقول زعيمهم سارتر « ان وجود الله يلغى وجودى . فمن الخير أن لا يوجد الله ، لكى أوجد أنا » !! انه نفس منطق هيرودس ونفس تصرفه ، والقياس مع الفارق ...

عكس موقف هيرودس من المسيح ، كان موقف يوحنا المعمدان . كان المعمدان فى قمة مجده وعظمته . ثم ظهر المسيح . فقال يوحنا «ينبغى أن ذاك يزيد ، وانى أنا أنقص» (يو ٣ : ٣٠) . يوحنا كان يختفى لكى يظهر المسيح . أما هيرودس فأراد أن يختفى المسيح ، لكى يظهر هو !! مسكين ، كانت ذاته هى سبب متاعبه . لقد انطبق عليه قول الرب « من وجد ذاته يضيعها » (متى ١٠ : ٣٩) . وأما النصف الآخر من الآية « ومن أضاع ذاته من أجلى يجدها » فينطبق على يوحنا .

كثيرون لا يفرحون بمجئ المسيح ، ذلك لأنهم غير مستعدين للقائه . لو عرفوا أن المسيح قد جاء يخافون

ويرتعشون . يخافون أن يكشفهم ، أو أن يضبطهم فى خطية، أو أن يحرمهم من مشغوليات تبهجهم ... شخص يقولون له « قد جاء المسيح » فيصرخ فى رعب « وماذا أفعل ؟! لم أعترف بعد ، ولم أتب بعد ،ولم أستعد للقائه ... أنا ما أزال سالكا حسب الجسد . فهل سيجدنى المسيح هكذا ؟ وبأى وجه سأقابله ...

ماذا نفعل لو قيل لنا « هوذا المسيح قد جاء » ؟
أخاف أن نقول « نحن غير قادرين أن نستعد للقائه . من الأفضل أن تقتلوه ... » .

لا يا أخى لا تفعل هكذا . بل كن كالرعاة الساهرين ، الذين كانوا يحرسون حراسات الليل ، فاستحقوا ذلك الفرح العظيم الذى بشرهم به الملاك . أو كن كالخمس عذارى الحكيمات اللائى كن ساهرات ومستعدات للقاء العريس .



الفصل الثاني

مُصَالحة السَّماء وَالارض

أول شيء نتذكره في ميلاد الرب هو عمق محبته للناس. فمن أجل محبته لهم سعى لخلاصهم . ومن أجل محبته لهم أخلى ذاته ، وأخذ شكل العبد ، ونزل من السماء ، وتجسد وصار فى الهيئة كانسان (فى ٢ : ٧ ، ٨)

ان التجسد والفداء ، أساسهما محبة الله للناس . فهو من أجل محبته لنا ، جاء الينا . ومن أجل محبته لنا ، مات عنا . لهذا يقول الكتاب « هكذا أحب الله العالم ، حتى بذل ابنه الوحيد ... » (يو ٣ : ١٦) . انظروا ماذايقول « هكذا أحب ... حتى بذل » . نحن اذن فى تجسده ، نذكر محبته التى دفعته الى التجسد . واعترافا منا بهذه المحبة ، نتغنى بها فى بدء كل يوم ، اذ نقول للرب فى صلاة باكر « أتيت الى العالم بمحبتك للبشر ، وكل الخليقة تهللت بمجيئك » .

قبل ميلاد السيد المسيح ، كانت هناك خصومة بين الله والناس . فجاء المسيح لكى يصالحنا مع الله ، أو جاء لكى نصطلح معه هو . قبل مجيئه كانت هناك خصومة بين السماء والأرض . ومرت فترة طويلة كانت فيها شبه قطيعة بين السمائيين والأرضيين : لا رؤى ، ولا أحلام مقدسة ، ولا أنبياء ، ولا كلام من الله للناس ، ولا ظهورات مقدسة ...ولا

أية صلة واضحة ... !! كانت الأرض بعيدة عن السماء طوال تلك الفترة ...

كانت خطايا الناس كليالى الشتاء : باردة ومظلمة وطويلة. وكانت تحجب وجه الله عنهم . وكانت الخصومة بينهم وبين الله ، يمثلها فى الهيكل الحاجز المتوسط الذى لا يستطيع أحد من الشعب أن يجتازه الى قدس الأقداس ... وزادت خطايا الناس ، واحتدم غضب الله عليهم ، واستمرت القطيعة . ولم يحاول البشر أن يصطلحوا مع الله .

ثم جاء السيد المسيح ، فأقام صلحا بين السماء والأرض، وأرجع الصلة بينهما . وبدأت تباشير الصلح تظهر . ورجعت العلاقات كما كانت من قبل وأكثر ...

ولكى أوضح الأمر لكم أقول : تصوروا أن دولتين متخاصمتين ، قد رجع الصلح بينهما ، فماذا تكون النتيجة : طبعا ترجع العلاقات كما كانت : يعود التمثيل السياسى بينهما ، وارسال السفراء والقناصل ... وفى ظل المودة الجديدة تبرم اتفاقية اقتصادية ، اتفاقية ثقافية ، اتفاقية عسكرية ... المهم أنه توجد علاقة وصلة . كذلك لنفرض أن شخصين متخاصمين قد اصطلحا ، فى ظل الصلح نرى العلاقات قد بدأت ترجع ، تعود التحيات والابتسامات والزيارات والأحاديث ، وتعود المودة.. هكذا حدث بين السماء والارض. **وبدأت تباشير الصلح تظهر بمجىء المسيح الى الأرض أو فى خطوات وممهدات مجيئه ...**

تباشير الصلح

وأول شيء شاهدناه من تباشير هذا الصلح هو كثرة نزول الملائكة الى الأرض · فى مجيء المسيح وقبيل مجيئه ازداد ظهور الملائكة بشكل واضح · ظهورات متوالية ، فردية وجماعية ، كسفراء للرب · تهلل الملائكة بفرح عظيم، وأرادوا أن يشتركوا فى هذا الحدث العجيب وهو تجسد الرب وميلاده فظهر ملاك يبشر زكريا بولادة يوحنا (لو ١ : ١١) ، وملاك يبشر العذراء بولادة المسيح (لو ١ : ٢٦) ، وملاك ظهر ليوسف فى حلم يخبره بحبل العذراء (متى ١ : ٢٠) · وملاك ظهر للرعاة يبشرهم بالميلاد الالهى (لو ٢ : ٩) · وملاك ظهر ليوسف فى حلم وأمره أن يهرب بالطفل يسوع وأمه الى مصر (متى ٢ : ١٣) · بالاضافة الى هذا جمهور الملائكة الذين ظهروا مسبحين الله وقائلين « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » (لو ١٢ : ٢٣ و١٤)·

ان ظهور الملائكة بهذه الكثرة ، يدل على أن العلاقات بدأت ترجع بين السماء والأرض ، وتدل على فرح الملائكة بالخلاص المزمع ، واشتراكهم مع الأرضيين فى هذا الفرح ·

وظهور الملائكة فى فترة الميلاد كان مجرد طلائع للملائكة الذين ملأوا العهد الجديد ··· ملائكة كانوا يخدمون الرب على جبل التجربة (مر ١ : ١٣) ، وملائكة القيامة الذين ظهروا للنسوة ، ومثل الملاكين اللذين طمأنا الرسل وقت صعود

الرب (أع ١ : ١٠) ... كان هؤلاء جميعا طلائع نعرف بهم الملائكة غير المرئيين المحيطين بنا الآن ، الذين قال عنهم القديس بولس الرسول « أليس جميعهم أرواحا خادمة، مرسلة للخدمة لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص » (عب ١ : ١٤) .

ولم تكتف السماء في صلحها مع الأرض بظهور الملائكة ، بل امتدت الى الأحلام المقدسة بما فيها من توجيه ومن اعلان.

اجتمع الأمران معا بالنسبة ليوسف الصديق : ملاك ظهر له في حلم يخبره بالحبل المقدس (متى ١ : ٢٠) . وملاك ظهر له في حلم يأمره بالذهاب الى مصر (متى ٢ : ١٣) . ثم بعد ذلك ظهر له ملاك في حلم في أرض مصر يأمره أن يرجع الى بلده لانه « قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي » (متى ٢ : ٢٠) . ولما خاف أن يذهب الى اليهودية بسبب أن ارخيلاوس كان يملك هناك ، «أوحى اليه في حلم» أن ينصرف الى نواحي الجليل ، فذهب وسكن في الناصرة (متى ٢ : ٢٢).

هؤلاء الملائكة الذين ظهروا ليوسف الصديق في الأحلام، يعطوننا فكرة عن سمو مكانة العذراء . فالعذراء ظهر لها الملائكة عيانا في صحوها ، رأتهم بعينيها وسمعتهم بأذنيها ، أما يوسف الصديق فرأى وسمع في الأحلام. ان هذا يذكرنا بالفرق الكبير بين مركز موسى النبي ومركز هارون ومريم ، اللذين وبخهما الرب عندما تقولا على موسى ، فقال لهما « ان كان منكم نبي للرب ، فبالرؤيا استعلن له ، في الحلم أكلمه.

وأما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى • فما الى فم وعيانا أتكلم معه » (عدد ١٢ : ٦ـ٨) •

لقد كلم الملائكة يوسف الصديق عن طريق الاحــلام • وهكذا حدث أيضا مع المجوس ، بعد أن رأوا الطفل يسوع ، وقدموا له هداياهم « أوحى اليهم فى حلم أن لا يرجعوا الى هيرودس » فانصرفوا الى كورتهم (متى ٢ : ١٢) •

وحديث المجوس يذكرنا بظهورات مقدسة أخرى صاحبت حــدث الميــلاد ، ونقصــد أولا النجم الذى ظهر للمجــوس ، وأرشدهم الى مكان المزود المقدس (متى٢:١ـ١٢) • لم يكن ذلك النجم نجما عاديا ـ كما شرح القديس يوحنا ذهبىالفم ـ بل كان قوة الهية أرشدتهم • ذلك أن مساره كان غير عادى، من الشرق الى الغرب • وكان يظهر حينــا ، ويختفى حينــا آخر ، ويقف حينا ثالث • كذلك ارشاده لمكان المزود معناه أنه هبط من علوه هبوطا يوضح المكان وبخاصة لأن الكتاب يقول عنه انه « وقف حيث كان الصبى » • هذا النجم كان ظهورا مقدسا ولم يكن نجما كباقى النجوم •••

وفى صلح السماء مع الأرض الذى جلبته بركة الميلاد لم تقتصر الصلة على ظهور الملائكة والاحلام المقدسة والظهورات المقدسة ، بل أيضا رجعت روح النبوة مرة أخرى ، ورجــع عمل الروح القدس فى الناس وامتلاؤهم منه •

نقرأ عن يوحنا المعمدان فى بشارة الملاك عنه انه « من بطن أمه يمتلىء من الروح القدس » (لو ١ : ١٥) • ونقرأ فى بشارة الملاك للعذراء قوله لها « الروح القدس يحل عليك ، وقوة العلى تظللك » (لو ١ : ٣٥) • ونقرأ فى زيارة العذراء مريم للقديسة اليصابات انه « لما سمعت اليصابات سلام مريم ، ارتكض الجنين فى بطنها ، وامتلأت اليصابات من الروح القدس » (لو ١ : ٤١) • ونقرأ عن زكريا الكاهن ـ بعد انقضاء فترة صمته ـ « وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلا ••• » (لو ١ : ٦٧) • نقرأ أيضا عن سمعان الشيخ انه كان رجلا بارا « والروح القدس كان عليه وكان قد أوحى اليه بالروح القدس ••• » (لو ٢ : ٢٥ ، ٢٦) •

عجيب جدا هذا العمل الواسع للروح القدس فى الناس فى تلك الفترة المقدسة • وعجيب هذا الامتلاء من الروح القدس وهذا الحلول ، وهذا التنبوء أيضا••• لقد تنبأ زكريا الكاهن ، وتنبأت امرأته اليصابات ، وتنبأ سمعان الشيخ ، وتنبأت حنة بنت فنوئيل (لو ٢ : ٣٦) • وبدا أن الله رجع يتكلم فى أفواه الأنبياء ••• وكل ذلك كان من بوادر انتهاء الخصومة بميلاد المسيح ، أو كانت هذه هى تباشير الصلح الذى تم على الصليب •

وكان من تباشير الصلح أيضا رجوع المعجزات • والمعجزات دليل عمل يد الله مع الناس ••• كان انفتاح رحم اليصابات العاقر هو المعجزة الأولى • وكان صمت زكريا

الكاهن ثم انفتاح فمه بعد تسعة أشهر معجزتين أخريين ٠
وكانت معجزة المعجزات هي ولادة السيد المسيح من عذراء ٠
وكان ارتكاض الجنين بابتهاج في بطن اليصابات تحية للجنين
الاله الذي في بطن العذراء هو معجزة أخرى ٠ ولا نستطيع
أن نحصى المعجزات التي رافقت ميلاد المسيح وطفولته ٠ أما
معجزاته في أرض مصر، فلعل أبرزها هو ما يشير اليه أشعياء
النبي قائلا « هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى
مصر ٠ فترتجف أوثان مصر من وجهه ، ويذوب قلب مصر
داخلها » (أش ١٩ : ١) ٠ وفعلا سقطت أوثان مصر بدخول
الرب اليها ٠٠٠

كل هذا يدل على أن يد الرب قد بدأت تعمل ، وأن ميلاد
المسيح كان مقدمة لصلح السماء مع الأرض ، الصلح الذي
قلنا ان أولى تباشيره كان ظهور الملائكة ٠ ويحسن أن نقف
وقفة تأمل بسيطة عند ظهورات الملائكة هذه ٠٠٠

■ **أول ملاك ظهر وذكره الانجيل المقدس ، كان هو الملاك الذي ظهر لزكريا الكاهن ٠ انها لفتة كريمة من الرب يعطى بها كرامة للكهنوت** ، فيكون ظهور الملائكة أولا للكهنة ، بعد فترة الاحتجاب الطويلة ٠ ولفتة كريمة أخرى للكهنوت ، أن يظهر الملاك في مكان مقدس « واقفا عن يمين مذبح البخور »،
وفي لحظة مقدسة عندما كان زكريا البار يكهن للرب ويرفع
البخور أمامه (لو ١ : ٨-١٠) ٠٠٠

جميل من الرب أنه عندما أرسل خدامه السمائيين ، أرسلهم أولا الى بيته المقدس والى خدام مذبحه الطاهر . ولا شك أن هذا كله يشعرنا بجمال المذبح الذى وقف الملاك عن يمينه فى أول تباشير الصلح . كم بالأكثر جدا مذبح العهد الجديد فى قدسيته الفائقة للحد ، حيث ملاك الذبيحة الصاعد الى العلو يحمل الى الله تضرعنا ...

نعود الى الملاك الطاهر الذى ظهر لزكريا الكاهن ...

كان ملاكا يحمل بشارة مفرحة . لقد عاد الرب يفرح وجه الأرض التى حرمت كثيرا من أفراحه فى فترة القطيعة والخصومة .

وهل هناك فرح أعظم من تبشير زوج العاقر بأنها ستلد ابنا « لم يقم بين المولودين من النساء من هو أعظم منه » (متى ١١ : ١١) ، ابنا سيكون « عظيما أمام الرب » (لو ١:١٥)!! عبارات « الفرح » تدفقت من فم الملاك ، فقال « لا تخف يا زكريا ، لأن طلبتك قد سمعت ، وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا ، وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح ، وابتهاج ، وكثيرون سيفرحون بولادته » .

وكانت ايحاءة جميلة من الرب فى تباشير هذا الصلح ، أن يسمى الطفل « يوحنا » ... وكلمة يوحنا معناها « الله حنان » !!

وكأن الله يقصد أنه وان تركنا زمنا ، الا أن محبته دائمة الى الأبد ، « مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفئها » (نش ٨ : ٧). وأنه وان حجب وجهه حينا ، فانه لا يحجب قلبه الحنون .

فعلى الرغم من فترة القطيعة بين السماء والأرض التى سبقت ميلاد المسيح ، وعلى الرغم من الخصـومة القائمة ، كان الله مايزال كما هو ، كله حنان وشفقة ... « الله حنان » أو «الله حنون » . لعل هذا يذكرنا بقول الرب من قبل « لأنه كامرأة مهجورة ومحزونة الروح دعاك الرب ، وكزوجة الصبا ... لحيظة تركتك ، وبمراحم عظيمة سأجمعك . بفيضان الغضب حجبت وجهى عنك لحظة ، وباحسان أبدى أرحمك ... »
(أش ٥٤ : ٦ ـ٨)

انها نبوءة أشعياء عن مصالحة الرب لشعبه وكنيسته ، قد بدأت تتحقق ... تلك النبوءة العجيبـة ، الجميلـة فى موسيقاها ، التى بدأها الرب بنشيده العذب « ترنمى أيتها العـاقر التى لم تلد ... » (أش ٥٤ : ١) . ترى أكانت اليصابات « العاقر التى لم تلد » رمزا للكنيسة فى افتقاد الرب لها ؟ وهل كان اسم ابنها يوحنا « الله حنـان » رمزا أيضا لمصالحة الله لكنيسته ؟ وهل ترنم اليصابات « العـاقر التى لم تلد » كان بشيرا بتحقيق باقى مواعيـد الله اذ يقول لكنيسته فى نفس النشيد :

« كما حلفت أن لا تعبر بعد مياه نوح على الأرض ، هكذا حلفت أن لا أغضب عليك ولا أزجرك . فان الجبال تزول ، والآكام تتزعزع . أما احسانى فلا يزول عنك ، وعهد سلامى لا يتزعزع ، قال راحمك الرب » .

« أيتها الذليلة المضطربة غير المتعزية ، هأنذا أبنى بالأثمد

حجارتك ، وبالياقوت الأزرق أؤسسك • وأجعل شرفاتك ياقوتا ، وأبوابك حجارة بهرمانية ، وكل تخومك حجارة كريمة • وأجعل كل بنيك تلاميذ للرب ، وسلام بنيك كثيرا» (أش ٥٤ : ٦-١٣)

هل كان هذا الاصحاح الرابع والخمسون من نبوءة اشعياء موضع تأمل القديسة اليصابات فى خلاص الرب القريب، طوال الستة أشهر التى مرت ما بين بشارة الملاك لزكريا وبشارة الملاك للعذراء ؟! ان هذه الفكرة تملأ قلبى ، وتضغط على عقلى بالحاح شديد ••• ولا شك أن هذه القديسة الشيخة التى كانت تحمل ابنا نذيرا للرب فى أحشائها ، كانت تشعر أنه ليس بأمر عادى هذا الذى حدث لها • واذ تتأمل فى هذا الفصل من اشعياء - الذى ينطبق عليها وعلى الكنيسة - يهز كيانها كله هذا « النبى الانجيلى » اذ يقول « ها العذراء تحبل وتلد ابنا وتدعو اسمه عمانوئيل » (أش ٧ : ١٤) •

قلنا انه من تباشير الصلح بين السماء والأرض كان ظهور الملائكة للبشر • وكان الملاك الأول هو الذى بشر زكريا الكاهن

■ **أما الملاك الثانى ، فكان جبرائيل ، الذى بشر السيدة العذراء •**

نلاحظ أن هذا الملاك كان له مع العذراء أسلوب معين • لقد بدأها بالتحية ، بأسلوب كله توقير واحترام لها • فى بشارة زكريا لم يبدأه الملاك بالتحية ، وانما قال له « لا تخف

يا زكريا فان طلبتك قد سمعت » · أما فى بشارة العذراء فقال لها الملاك « السلام لك أيتها الممتلئة نعمة · الرب معك· » وعندئذ ـ بعد هذه المقدمة ـ بدأ الملاك فى اعلان رسالته · وحتى هذه الرسالة أدمجها بعبارة مديح أخرى فقال « لا تخافى يا مريم ، لأنك قد وجدت نعمة عند الله » ثم بعد ذلك بشرها بالخبر الذى جاء من أجله « ها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع ··· » ·

انه أسلوب احترام عجيب يليق بالتحدث مع والدة الاله المجدة ، الملكة الجالسة عن يمين الملك ·

لم يستطع رئيس الملائكة جبرائيل أن ينسى أنه واقف أمام أقدس امرأة فى الوجود ، وأنه واقف أمام أم سيده ، التى ستكون سماءا ثانية لله الكلمة · فخاطبها بأسلوب غير الذى خوطب به الكاهن البار زكريا ···

هنا نلاحظ أنه لم يبدأ فقط صلح بين السمائيين والأرضيين ، بل بدأ تقدير وتوقير من سكان السماء لسكان الأرض فى شخص أمنا وسيدتنا العذراء مريم ··· فمرحبا بهذا الصلح ·

■ **أما الظهور الثالث ، فكان ظهور ملاك الرب للرعاة ·**

هنا نجد تقدما ملموسا فى العلاقات ، اذ لم يقتصر الأمر على أن « ملاك الرب وقف بهم » بل يقول الكتاب أكثر من هذا « ومجد الرب ·· أضاء حولهم » · وبعد أن بشرهم الملاك

«بفرح عظيم» يكون «لجميع الشعب» ، وبولادة «مخلص» ، «ظهر بغتة ــ مع الملاك ــ جمهور من الجند السماوى مسبحين الله وقائلين : « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرة » ٠

وهنا نسمع عبارات الفرح ، والمسرة ، والسلام ، والخلاص ٠٠٠ وبدلا من ظهور ملاك واحد ، نرى جمهورا من الجند السماوى يسبحون ٠

انها تباشير الصلح العظيم ، المزمع أن يتم على الصليب ٠ ونلاحظ أن هذا الصلح قد بدأه الله لا الناس ٠

الله يصالح البشرية

أول ما نتذكره فى هذا المجال ، هو أن الله يسعى لخلاص الانسان ، حتى لو كان الانسان لا يسعى لخلاص نفسه ٠

نلاحظ هذا منذ البدء : عندما أخطأ آدم وسقط ، لم يسع لخلاص نفسه ، بل نراه ــ على العكس من ذلك ــ قد هرب من الله ، وخاف من الله ، واختفى من الله ٠ لم يحدث أنه سعى الى الله ، طالبا الصفح والمغفرة ، وطالبا النقاوة والطهارة ٠ بل انه « لما سمع صوت الرب الاله ماشيا فى الجنة ٠٠٠ » اختبأ هو وامرأته من وجه الرب (تك ٣ : ٨) ٠ وهكذا أوجد حجابا وحاجزا بينه وبين الله ٠ وبدأت الخصومة ٠

من الذى سعى لخلاص آدم ؟ انه الله نفسه ، دون أن يطلب آدم منه ذلك • آدم شغله الخوف عن الخلاص أو حتى عن مجرد التفكير فيه ••• وهكذا بحث الله عن آدم ، وتحدث معه ••• وأعطاه وعدا بأن نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية (تك ٣ : ١٥) •

لقد اعتبر الله أن المعركة الدائرة هى بينه وبين الشيطان، وليست بين الشيطان والانسان • اعتبر أن قضيتنا هى قضيته هو • واذا بنسل المرأة الذى يسحق رأس الحية هو الله نفسه الذى أتى فى ملء الزمان من نسل المرأة • هو الله اذن الذى دبر قصة الخلاص كلها ، لأنه « يريد أن الجميع يخلصون، والى معرفة الحق يقبلون » (١ تى ٢ : ٤) • هو يريد خلاصنا جميعا ويسعى اليه ، حتى ان كنا نحن ـ فى تكاسلنا أو فى شهواتنا ـ غافلين عن خلاص أنفسنا !•••

فى قصة الخروف الضال ، نرى أن هذا الخروف الضال لم يسع لخلاص نفسه ، وانما ظل تائها وبعيدا • والراعى الصالح هو الذى جرى وراءه ، هو الذى فتش عليه وسعى اليه ، وهو الذى تعب من أجله الى أن وجده ، وحمله على منكبيه فرحا ، ورجع به سالما الى الحظيرة •••

وفى قصة الدرهم المفقود ، نجد نفس الوضع أيضا ••• الله اذن هو الذى يسعى جاهدا لخلاص الانسان •

فان تعطل خلاص الانسان ، يكون السبب بلا شك راجعا الى الانسان ذاته وليس الى الله •

وهذا الأمر واضح فى تبكيت الرب لأورشليم ، اذ قال لها « يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، ولم تريدوا » (متى ٢٣ : ٣٧) ... أنا أردت ، وأنتم لم تريدوا ...

مثال آخر هو عروس النشيد . الله هو الذى سعى لخلاصها « طافرا على الجبال ، وقافزا على التلال » . وقال لها « افتحى لى يا أختى يا حبيبتى يا حمامتى يا كاملتى ، لأن رأسى قد امتلأ من الطل وقصصى من ندى الليل » (نش ٥ : ٢) . وتكاسلت النفس فى الاستجابة ، وتعللت بالأعذار . فماذا كانت النتيجة ... كانت انها عطلت عمل النعمة فيها بعض الوقت، وصاحت فى ندم « حبيبى تحول وعبر » ...

تأكد انك ان كنت تريد الخلاص من الخطية ، فان الله يريد لك ذلك أضعافا مضاعفة ... المهم انك تبدى رغبتك المقدسة هذه . هناك عبارة لطيفة قالها أحد القديسين . قال « ان الفضيلة تريدنا أن نريدها لا غير » . يكفى أن نريد ، ارادة جادة ، والله يتولى الباقى . بل حتى هذه الارادة هو يمنحها لنا ، لأجل خلاصنا .

ومن القصص العجيبة عن سعى الله لخلاصنا ، ما يقوله الله - فى سفر حزقيال النبى - للنفس الخاطئة الملوثة ... « مررت بك ورأيتك مدوسة بدمك ... وقد كنت عريانة وعارية . فمررت بك ورأيتك واذا زمنك زمن الحب . فبسطت

ذيلي عليك ... ودخلت معك فى عهد ـ يقول السيد الرب ـ فحممتك بالماء ، وغسلت عنك دماءك ، ومسحتك بالزيت ، وألبستك مطرزة ... وجملت جدا جدا ، فصلحت لمملكة » (حز ١٦) .

تلك النفس المسكينة ـ لو تركت لذاتها ـ لبقيت على حالها مطروحة وملوثة ، عريانة وعارية . ولكن الله فعل من أجلها الكثير ، وأنقذها مما هى فيه ...

ولكن ليس معنى سعى الله لخلاصنا ، أننا نتكل على ذلك ونكسل ! كلا والا فانه يتحول ويعبر كما حدث مع عروس النشيد . انما يجب أن تتحد ارادتنا بارادته ، وعملنا بعمله . هو ينزل الى عالمنا ، ونحن نقدم له ولو مزودا ليستريح فيه ...

ان الله يسعى لخلاصنا ، ويسعى ليصالحنا معه . عجيب فى هذه المصالحة ، أننا نرى الصلح يبدأ من جانب الله ، أكثر مما يبدأ من جانب البشر ... انه درس لنا حينما تكبر قلوبنا على اخوتنا الصغار ، فلا نسعى لمصالحتهم بحجة أننا الكبار !! بينما قد وضع لنا الله مثالا حسنا ..

الكبير يسعى لمصالحة الصغير

فى كل تباشير الصلح التى ذكرناها نرى أن الله هو الساعى لمصالحة البشرية . النور الذى لا يدنى منه ، يسعى لمصالحة التراب والرماد ! ملك الملوك ورب الأرباب يتقدم

ليصالح عبيده ... نراه أنه هو الذى أرسل الملائكة للبشر ، وهو الذى بعث اليهم برسائل فى الأحلام . وهو الذى أرجع لهم روح النبوءة ، وهو الذى عمل على اعادة العلاقات كما كانت من قبل ... بل هو الذى أرسل اليهم ابنه الوحيد ليخلصهم ، من فرط محبته لهم .

وكما قال القديس يعقوب السروجى : انه كانت هناك خصومة بين الله والانسان . فلما لم يتقدم الانسان لمصالحة الله نزل الله ليصالح الانسان » .

ولم يحدث هذا فى الميلاد فقط ، وانما كان هو دأب الله دائما . نراه وهو الكبير العالى غير المحدود يسعى لمصالحة الانسان . يقول « أنا واقف على الباب وأقرع . من يفتح لى أدخل وأتعشى معه » (رؤ ٣ : ٢٩) . ونحن نتساءل فى عجب : كيف يارب تقف على الباب وتقرع . البشر هم الذين يذهبون الى بابك ، ويقبلون أعتابك ، ويطلبون رضاك ... يقول الله : بل أنا الذى أذهب اليهم . أنا لست أبحث عن كرامة لى ، وانما أنا أبحث عن خلاصهم هم . ولا يمكننى أن أستريح حتى أطمئن على خلاصهم .

حقا ، ما أعجب قلب الله المحب ، وما أعجب تواضعه ...

الله يرسل الأنبياء والرسل لكى يصالحوه مع البشر . يعترف بولس الرسول بهذا فيقول « نسعى كسفراء عن المسيح ، كأن الله يعظ بنا ، نطلب عن المسيح : تصالحوا مع الله » (٢ كو ٥ : ٢٠) .

عفا : هل كان هناك عمل آخر للأنبياء سوى عقد صلح بين الله والناس . والله هو الذى طلب الصلح فأرسل أنبياءه! بل ما أعجب الرب فى سعيه للصلح اذ يقول : « **بسطت يدى طول النهار ، الى شعب معاند ومقاوم** » (رو ١٠ : ٢١) . ورغم معاندة الشعب مازال الرب باسطا يده ، يطلب صلحا معنا بل ان الله يقول للناس « هلم نتحاجج » (أش١:٢١) .

الله هــو الــذى صــالح يونان النبى لمــا اغتم واغتاظ ، مع أن غضبه لم يكن حسب مشيئة الرب . أعـد له يقطينـة « فارتفعت فوق يونان لتكون ظلا على رأسه ، لكى يخلصه من غمه » وظل يجاذبه الحديث قائلا له « هل اغتظت بالصواب ؟ » ويونان يجيب « اغتظت بالصــواب حتى الموت » . وهكذا لم يزل به حتى أقنعه وصالحه (يونان ٤) .

والسامرة التى أغلقت أبوابها فى وجهه ، لأن وجهه كان متجها نحو أورشــليم ، لم يتضــايق من تصرفها هذا ، ولم ينزل نارا من السماء ليحرقها كما اقترح التلميذان ، بل ذهب اليها مرة أخرى ليصــالحها ، وهى المخطئة . وبذل من حبــه ورعايته حتى أصلحها وصارت له (يو ٤) .

وفى قصة الابن الضال ، نرى ان الابن الكبير لمــا غضب ورفض أن يدخل ، ورفض أن يشترك فى الفرح برجوع أخيه، مع ان غضبه لم يكن مقدسا ،ومع أن ارادته كانت ضد ارادة

الآب ، الا أن الاب ذهب اليه ليصالحه • وفى ذلك يقول الكتاب « فخرج أبوه يتوسل اليه » (لو ١٥ : ٢٨) •

ومع ان كلام هذا الابن كان قاسيا فى حديثه مع أبيه،وكانت اتهاماته كثيرة وظالمة ، الا ان الأب احتمله ، وأطال أناته عليه حتى صالحه • ولم يقل له كيف وأنت صغير تكلمنى هكذا !

ولما أخطأ بطرس وأنكر المسيح ، لم ينتظر الرب حتى يأتى بطرس تائبا ومعتذرا ، بل هو الذى بدأه بالكلام ، وسهل الأمر عليه ، وأرجع العلاقات كما كانت ، بنفس الدالة •••

ان الرب لا يرى فى سعيه للصلح انقاصا لقدره أو اضاعة لكرامته ، بل على العكس انه يبرهن على محبته وعلى تواضعه فيزداد حب الناس له •

وان كان الله بميلاده قد جاء ليصالحنا ، فاذهب انت يا أخى وصالح غيرك • لا تقل كيف أذهب أنا ؟ هم الذين يأتون • كلا ، فان الذى يقوم بالصلح ، هو الذى ينال بركته ••• ولا تقل كيف أصالح ابنى ، أو أخى الأصغر ، أو خادمى، أو مرؤوسى ، وأنا الكبير ؟!

اعرف تماما أن الكبير هو الكبير فى قلبه وفى حبه ، وهو الكبير فى فضائله وفى احتماله • والله لا يقيس الناس بمقياس السن أو المركز ، بل بنقاوة القلب •

ومهما كنت كبيرا ، فلن تكون مطلقا فى درجة الله الذى سعى لمصالحة عبيده ومخلوقاته ! وحاذر من أن تطلب احتراما يليق بك ، حتى لو كان يليق بك المجد والكرامة !! بل اطلب محبة الناس وبركتهم . وفى ذكرى الميلاد تذكر تواضع الرب الذى نزل من سمائه الينا ، فكيف لا نتنازل بعضنا للبعض ...

وفى مصالحة الناس ، لا تفكر فى خطية غيرك ـ كبيرا كان أم صغيرا ـ وانما فكر فى نقاوة قلبك ، وضع أمامك تواضع الرب فى مصالحته للبشر .



الفصل الثالث

دروس من حياة العذراء

اتضاع العذراء

في الحديث عن الميلاد البتولي المجيد ، لا نستطيع أن نتكلم عن المجوس وهيرودس والرعاة ... ونترك شخصية العذراء التي هي مصدر دسم عميق للتأملات الروحية . السيدة العذراء هي أطهر وأنقى وأقدس فتاة وجدت على سطح الأرض ، ولا يوجد لها شبيه ...

لقد وعد الله الانسان بالخلاص ، وقال له ان نسل المرأة سوف يسحق رأس الحية . ومرت آلاف من السنين الى أن تم هذا الخلاص . ولعل من أهم أسباب هذا الانتظار أن الرب كان ينتظر الفتاة القديسة الطاهرة التي يمكنه أن يحل في أحشائها .

كان ملء الزمان ينتظر هذه الفتاة القديسة . آلاف من النساء وجدن على الأرض . كل واحدة منهن كانت تشتهي أن يولد منها المسيح ، حتى أن العقم حسب في ذلك الزمان عارا ... ولكن الرب لم يحل في أحشاء أية واحدة من كل تلك الآلاف من النساء .

كان لابد من وجود فتاة من نوع معين ، تكون أهلا لأن

يأخذ الرب منها جسـدا : يسكن فى بطنها ، ويتغذى من دمائها ، ثم يولد منها ويرضع من لبنها ، ويعيش فى كنفها سنوات ... لم تكن أية فتاة تصلح لهذا الأمر · كان لابد من واحدة تتميز بصفات خاصة تؤهلها لهذا العمل العظيم ... وكانت العذراء مريم هى هذه الواحدة التى انتظرتها الأجيال الطويلة ·

فما هى الصفات التى أهلتها لهذا المجد وهذه الطوبى ؟

كانت أول صفة تشترط فيها هى التواضع · فلماذا ؟ مـا هى أهمية التواضع بالنسبة للدور العظيم الذى عهد به الى العذراء ؟

ان المسـيح الهنا المتواضع ، كان لابد أن يختار فتـاة متواضعة لكى يولد منها · ليس فقط من أجل جمال فضيلة التواضع ، وانما لأمر آخر أخطر من هذا بكثير ...

ذلك لأن الفتاة المتواضعة هى الوحيدة التى تستطيع أن تحتمل هذا المجد العظيم الذى به تدعى « والدة الاله » ...

حقا ، من هى التى تستطيع أن تحتمل هذا اللقب العظيم الذى لم يطلق على امرأة أخرى فى الوجود ؟ من تحتمل الحبل الالهى المقدس ، وتعلم أن الروح القدس يحل عليها ، وقوة العلى تظللها ، وتعلم أن القدوس المولود منها يدعى ابن الله ؟ من تحتمل هـذا ؟ ومن يمكنها أن تحتمل أيضـا ظهورات الملائكة ، وكثرة الرؤى والمعجزات والأعاجيب التى تصحب

وجود الله الكلمة فيها ومعها ؟ ... هل أية فتاة أو امرأة يمكنها أن تحتمل كل هذا المجد ، وكل مـا يقابلها من تطويب ومديح ؟!

ان لم تكن فتاة متضعة ومنسحقة النفس من الداخل ، فان كل تلك الكرامة لابد أن تهزها هزا وتتعبها . لذلك كان لابد من فتاة لها من عمق الاتضاع مـا يعادل علو تلك الكرامة. وهنا يظهر سمو العذراء .

في العالم نساء كثيرات لا يحتملن شيئا من المجد العالمى مهما كان تافها ، فكم بالحرى المجد الالهى أو المجد الروحى... امرأة ان ظهرت نتيجة المدرسة ، وكان ابنها أول فرقته ، لا يمكن أن تحتمل الفرحة ، وتظل تدور على البيوت ، وتقول في كل زيارة ولكل أحد « ابنى أول فرقته » ... امرأة أخرى ان صار ابنها طبيبا ، أو حتى دخل كلية الطب، مجرد دخول، تصر على أن يسميها الناس « أم الدكتور » . وامرأة أخرى ان سافر ابنها الى الخارج في بعثة ، تحاول أن تخلق مناسبة أو غير مناسبة لكى تعلن على الناس ان ابنها سافر في بعثة ..! ماذا يحدث اذن لو ان ابن واحدة من هؤلاء كان هو الله ، حاشا .. لا شك انها تجن ، ولا تحتمل ... لهذا كان لابد أن يختار الله فتاة متواضعة تحتمل كل تلك الكرامة ...

هذا الأمر واضح في تسبحة العذراء اذ تقول « تعظم نفسى الـرب ، وتبتهج روحى بالله مخلصى ... **لأنه نظر الى**

اتضاع أمته » (لو ١ : ٤٨) • نظر الى اتضاع أمته ، الى مذلتها وعوزها ويتمها وفقرها ، ولم يختر فتاة أخرى جليلة القدر ، عظيمة فى نظر الناس • بل على العكس « انزل الأعزاء عن الكراسى ورفع المتضعين » •

نلاحظ هنا انها قالت « أمته » أى عبدته وخادمته • ونفس التعبير قالته للملاك « هوذا أنا أمة الرب » (لو ١ : ٣٨) • قالت « أمته » وهى « أمه » •••

ان البشارة العجيبة لم ترفع قلب العذراء ، بل ظلت كما هى فى انسحاقها • لم ترتفع اذ اختيرت دون كل نساء العالم وى جميع الأجيال ، لهذا المجد وهذه الطوبى • وانما بقيت كما هى فى اتضاعها ، كأن شيئا لم يحدث • ولما سمعت أن اليصابات حبلى فى شيخوختها ، أسرعت لتضع نفسها فى خدمتها •

مقابلة العذراء لأليصابات

سمعت العذراء القديسة من الملاك أن اليصابات حبلى فى شيخوختها ، وأنها فى الشهر السادس ، فأدركت انها ولا شك محتاجة الى خدمة • ولم تستنكف من الذهاب اليها والوقوف الى جوارها لخدمتها •

لم تقل فى نفسها « كيف أذهب لخدمة هذه العجوز ، وانا الممتلئة نعمة ، أنا المختارة من بين نساء العالم كله ،

أنا المباركة فى النســاء ، أنا التى أحمل فى أحشــائى الله الكلمة ... ! » . بل أسرعت ، وصعدت الجبال وهى حامل، وذهبت اليها فى اتضاع . وشعرت اليصابات باتضاع العذراء فى هذه الزيارة الكريمة . فقالت لها « من أين لى هذا ، أن تأتى أم ربى الى » (لو ١ : ٤٣) .

هذه الزيارة تعطينا فكرة سامية عن مقابلات القديسين وعن طابع الزيارات المقدسة : زيارة عجيبة يعمل فيها الروح القدس ، كلها كلام روحى ، وتسبيح لله . لم يتكلم فيهــا أحد كلاما خارجا أو كلاما زائدا ، بل كله للبنيان . وزيارة فيها كل واحد يتضع للآخر : العذراء تتضع وتأتى لخدمة اليصابات ، واليصابات تقول فى اتضاع للعذراء « من أين لى هذا أو تأتى أم ربى الى » ...

وكانت زيارة تعطى فكرة عن مكانة العذراء العجيبة عند الله ... اذ أنه بمجرد كلمة السلام التى ألقتها مريم العــذراء الى اليصــابات ، امتلأت اليصــابات من الروح القدس ، وتنبأت ، وارتكض الجنين بابتهاج فى بطنها . انظروا ماذا يقول الكتاب « فلما سمعت اليصابات سلام مريم ، ارتكض الجنين فى بطنها ، وامتلأت اليصابات من الروح القدس » (لو ١ : ٤١) . واعترفت اليصابات بهذا فقالت للعذراء « هوذا حين صــار صوت ســلامك فى اذنى ، ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى » .

صدقونى اننى وقفت منذهلا أمام هذه العبارات العجيبة ...!

ما هذه الموهبة العظيمة التى للعذراء !؟ مجرد أن يد في أذن اليصابات ، تمتلىء اليصابات من الروح القدس لامها
هذا عجيب حقا ... تصوروا أن انسانا يدخل الى ؛! ويقول للموجودين « صباح الخير يا جماعة » ، فيمتلىء د من الروح القدس ، ويتنبأون !! ... هكذا حدث من العذرا وأرانا الرب أنه من أول وهلة للحبل المقدس ، أعطى هذه الكرامة العظيمة للمستودع الذى حل فيه ... ويزيد هذه الأعجوبة عمقا انها تمت بمجرد السلام : اعنى أن العذراء لم تضع يدها على رأس اليصابات ، ولم تقدم عنها صلاة ، ولا تشفعت فيها ، ولا باركتها بكلمة بركة . ولكن بمجرد أنها سلمت عليها حلت كل تلك البركات ...

هل أنت كذلك يا أخى : اذا زرت بيتا ، يمتلىء أهل هذا البيت من الروح القدس وتحل عليهم المواهب ...
ويتبارك البيت بوجودك ؟ هل يكون وجودك بركة لهذا البيت، مثلما كان وجود العذراء فى بيت اليصابات ، ومثلما كان ابليا فى بيت الأرملة ، واليشع فى علية الشونمية . ليتك تكون كذلك ... أعود بك مرة أخرى لنتابع تأملاتنا فى زيارة مريم لاليصابات :

نلاحظ فى هذه الزيارة ، أن روح الاعلان والكشف بدأ يعمل فى القديسة اليصابات ... رفع الله عنها الحجاب فبدأت ترى المخفيات والمحجبات ... ! ما دلائل ذلك ؟ سنرى الآن :

قالت اليصابات لمريم « من أين لى هذا ، أن تأتى أم ربى الى » • كيف عرفت أن هذه هى « أم ربها » ؟ كيف عرفت أن الرب قد حل فيها ؟ أليس حقا أن القديسة اليصابات قد أدركت ما لم يستطع ادراكه أريوس ونسطور بعد مئات السنين على الرغم من مكانتهما العلمية والكهنوتية ؟! بل من أين لأليصابات أن تعرف بحبل العذراء حتى تقول « ومباركة هى ثمرة بطنك » ؟! ومن أين لها أن تعلم بأن العذراء « قد آمنت بما قيل لها من قبل الرب » ؟!

كيف اتيح لها أن تعرف ما قاله الملاك للعذراء ، والعذراء لم تكن قد أخبرتها بعد بشيء •• ؟! حقا ان « سر الرب لخائفيه » كما يقول الكتاب (مز ٢٥ : ١٤) • انها لم تعرف فقط « ما قيل لها من قبل الرب » وايمانها به ، وانما هى أيضا حيت العذراء بنفس تحية الملاك لها ، بنفس العبارة التى قالها لها الملاك « مباركة أنت فى النساء » (لو ١ : ٢٨ ، ٤٢) ••• هذا عجيب •••

وأمام عظمة العذراء ، أو بالحرى أمام عظمة ابنها ، تصاغرت اليصابات وتضاءلت، ونست ما قيل عن عظمةابنها... لقد قيل عن ابنها انه « يكون عظيما أمام الرب » وانه « يرد كثيرين الى الرب الههم » وانه « يتقدم أمامه بروح ايليا وقوته » وانه « يهيىء للرب شعبا مستعدا » « وكثيرون سيفرحون بولادته » • ولكن كل هذا تضاءل أمام ما قيل للعذراء من قبل الرب •• نست اليصابات كل عظمة ابنها

وهى واقفة أمام أم ربها • وكما أن يوحنا اختفى لكى **يظهر** المسيح ، كذلك اختفت عظمته وهو جنين ، أمام عظمة الجنين الالهى • وعلى رأى الشاعر « فى طلعة الشمس من ذا يبصر الشهبا » ؟!

مكثت العذراء ثلاثة أشهر عند اليصابات ، بقيت معها طوال شهور الحمل الأخيرة حتى وضعت ••• هذا يظهر لنا صفة جميلة أخرى وهى **روح الخدمة عند العذراء** • كانت فتاة خدومة ، تحب خدمة الآخرين وتتعب لأجلهم • كانت كابنها الذى « لم يأت ليخدم ، بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين » (مز ١٠ : ٤٥) •

ومحبتها لخدمة الناس تابعتها باستمرار وكانت سبب المعجزة الأولى للمسيح فى عرس قانا الجليل • فلما رأت ان الخمر قد فرغت، وأصبح الأمر محرجا لأصحاب العرس اذ ليس لديهم ما يقدمونه للمدعوين ، تحنن قلب العذراء عليهم ، وتشفعت فيهم لدى ابنها الحبيب حتى يحل لهم الاشكال ثم قابلت الخدام وقالت لهم « مهما قال لكم فافعلوه » (يو ٢ : ٣ ـ ٥) • ومن أجلها أجرى المسيح المعجزة وفرح الناس فى عرسهم •

سمو مكانة العذراء

هذه العذراء المتواضعة الخدوم هى التى اختارها الرب لانسحاق نفسها ، ورباها التربية التى تمهدها لهذا الانسحاق •

تربية العذراء وأثرها فى سموها :

لم يختر الرب فتاة مدللة قد تربت فى القصور وتنعمت بمتع الدنيا ومادياتها • وانما اختار فتاة يتيمة مسكينة ، مات أبوها وهى فى السادسة من عمرها ، وماتت أمها وهى فى سن الثامنة • وعاشت العذراء فى الهيكل ، اذ كانت نذيرة للرب •

وكان لنذرها للرب قصة : كانت أمها « حنه » عاقرا • فبكت أمام الرب ، وصلت ، ونذرت أن تكون ثمرة بطنها للرب ، ان أعطاها الرب نسلا • وسمع الرب طلبتها وطلبة زوجها « يواقيم » ، الذى كان هو أيضا صائما ومعتكفا ومصليا من أجل هذا الموضوع عينه • وبشرهما الرب بميلاد العذراء • وحبلت حنه وولدت ابنتها القديسة ، فوهبتها للرب ، وتربت فى الهيكل •

ان الكنيسة المقدسة وان كانت تحتفل دائما بأعياد استشهاد القديسين أو نياحتهم ، وليس بميلادهم ، الا انها بالنسبة الى العذراء بالذات ، تحتفل بميلادها ، فى عيدين وليس فى عيد واحد : تعيد بميلاد العذراء فى أول بشنس، كما تعيد للبشارة بميلادها فى ٧ مسرى . لقد كان ميلاد العذراء هو بدء الأفراح ، لأنه ميلاد المستودع الذى يحل فيه رب المجد ••• ولأنه علامة على أن الرب قد بدأ يرضى على الأرض ، وأنه قد قرب زمان افتقادها • انه مولد العذراء القديسة ابنة الأصوام والصلوات ، وابنة المواعيد أيضا •

ولما أتمت العـذراء مدة طفولتها ، أخذتها أمها وسلمتها لهيكل الرب ، فعاشت فيه ، وتربت وسط التسابيح والمزامير والصلوات ، ووسط التقدمات والقرابين والذبائح والبخور. تربت مع الفتيات المختارات وكان الكل معجبا بها . وأقامت هكذا حتى الثانية عشرة من عمرها ، حيث نقلت الى بيت يوسف البار ، ليرعاها ويحفظها ...

تقديس الكنيسة للعذراء :

انها فى نظر الكنيسة أعلى من الملائكة ورؤساء الملائكة . نذكرها فى صلواتنا وألحاننا قبل الثلاثة العظماء المنيرين ميخائيل وجبرائيل وروفائيل رؤساء الملائكة . بل اننا نقول لها فى التسبحة .. ارتفعت يا مريم فوق الشاروبيم ، وعلوت يا مريم فوق السارافيم » ... هى فى نظرنا السماء الثانية التى استحقت أن تكون عرشا لله الكلمة .

نذكرها فى الأجبية وفى القداس وفى كل كتب الكنيسة :
فى السنكسار ، وفى الدفنار ، وفى القطمارس ، وفى الابصلمودية ، وفى كتب المردات والألحان ... فى صلوات الأجبية ، نذكرها فى القطعة الثالثة فى كل ساعة من ساعات النهار متشفعين بها . ونذكرها فى قانون الايمان ، اذ نقول فى مقدمته « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الاله ... » .

نضع صورتها باستمرار على يمين الخارج من الهيكل ،

(مز ٤٥ : ٩) • ويقدم لها الكاهن البخور عند خروجه من الهيكل وهو يقول « السلام لك أيتها الممتلئة نعمة ••• » • وعلى الجانب نضع صورة المسيح مع يوحنا المعمدان ، متذكرين قول المرتل « قامت الملكة عن يمينك أيها الملك ••• »

نذكرها فى صلاة البركة ، أولا وآخرها • نذكرها قبل جميع القديسين • فنبدأ البركة « بالصلوات والتضرعات والابتهالات التى ترفعها عنا كل حين والدة الاله القديسة الطاهرة مريم » • وبعد أن نذكر أسماء الملائكة والرسل والأنبياء والشهداء وجميع القديسين ، نختم بها البركة فنقول « وبركة السيدة العذراء أولا وآخرا » ••• وهكذا نذكرها فى صلاة المجمع فى القداس قبل جميع القديسين •

ونعيد لها ـ غير عيدها الشهرى ـ سبعة أعياد رئيسية فى السنة : عيد البشارة بميلادها ، وعيد ميلادها ، وعيد دخولها الهيكل ، وعيد دخولها مع الرب الى أرض مصر ، وعيد نياحتها ، وعيد صعود جسدها الى السماء ، وعيد بناء أول كنيسة على اسمها • أما عيدها الشهرى فهو فى اليوم الحادى والعشرين من كل شهر قبطى • يضاف الى هذا أننا نصوم لله صوما على اسمها هو ١٥ يوما يهتم الناس به اهتماما كبيرا •••

وما أكثر الكنائس والأديرة التى بنيت على اسم العذراء : غالبية الكنائس فى مصر على أسماء العذراء ، أو مارجرجس ، أو الملاك ميخائيل • لا نستطيع أن نحصى بالتدقيق الكنائس

التى تحمل اسمها ، أما من جهة الأديرة : فالى جوار دير العذراء للراهبات بحارة زويلة ، توجد على اسمها ثلاثة أديرة للرهبان : دير البراموس ، ودير السريان بوادى النطرون ، ودير المحرق بالصعيد ••• ان العذراء قد نالت شهرة كبيرة فى مصر ، وبخاصة لأنها زارت مصر مع ابنها الحبيب ، ولها فى كل مكان ذكريات خاصة بزيارتها أو خاصة بمعجزاتها •

على أن السبب الأول لشهرة العذراء لم يكن هو معجزاتها، وانما قبل كل شىء فضائلها ••• وسنحاول أن نتأمل بعض هذه الفضائل اذ لا يمكننا أن نلم بجميعها :

تكلمنا فى أول هذا الفصل عن اتضاع العذراء • ونود الآن أن نتحدث عن صمتها وتأملها •

صمت العذراء وتأملها

انه صمت ممزوج بالاتضاع والتأمل •

لقد رأت هذه القديسة ما لم يره أحد • رأت الكثير من المعجزات والرؤى • ومع ذلك لم تتكلم ، ولم تفتخر ، لا قليلا ولا كثيرا • بل يلخص الكتاب موقفها الوقور العجيب ، وتصرفها الروحى العميق ، فى عبارة واحدة هى :

« **وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام ، متفكرة به فى قلبها » (لو ٢ : ١٩) •**

ترى العذراء ملاكا يبشرها ، وتسمع عن ملاك ظهر لزكريا، وعن ملاك ظهر للرعاة مع جمهور من الجند السماوى مسبحين. ولعل يوسف قد أخبرها بأمر الملائكة الذين ظهروا له فى الأحلام . ولكنها لا تتحدث عن شيء من هذا ، بل « تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به فى قلبها » . لم تفتخر بشيء من جميع الأعاجيب التى حدثت لها ، بل لفتها جميعها بغلاف من الصمت ... **يخيل الى انها لم تتكلم الا عندما تحدثت للانجيليين القديسين عندما كتبوا أناجيلهم .**

أعاجيب كثيرة حدثت معها فى مصر ، ومع ذلك لم تتحدث عنها مريم ، ولم يذكرها لنا الانجيليون ، بل كانت القديسة مريم « تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به قلبها » ... لم نعرف أعاجيب الرب فى مصر الا عن طريق التقليد ، عن طريق التاريخ . حفظه لنا الذين رأوه ، والذين حدثت معهم المعجزات . أما مريم فظلت صامتة ...

لا شك أن معجزات كثيرة أخرى قد أجراها الرب فى فترة الثلاثين سنة من حياته التى سبقت خدمته . وكان يعيش هذه الفترة فى بيت العذراء . ولا شك أن أعاجيب أخرى رأتها العذراء فى حياة الرب ، فى كماله فى تصرفاته ، فى سيرته المقدسة ، فى علاقاته مع الناس . ولكنها صمتت ولم تذكر لنا شيئا من كل ذلك وكانت تحفظ جميع هذه الأمور متفكرة بها فى قلبها . وبقيت هذه الثلاثين سنة من حياة المسيح لغزا ...

كان التأمل بالنسبة اليها أعمق من الحديث والاعلان .

كان التأمل غذاء لروحها ، أمـا الحديث ففيه تشتيت لتأمل القلب · أو لعلها من عجب ما رأته ، كانت فى حالة من الدهش فى الروحيات لا تسمح بالكلام ، أو يقف الكلام معها عاجزا عن التعبير · أو لعل العذراء أسكتت فمها ، ليتكلم قلبها ، مع الله ·

مـا أعجب قلب العـذراء ، كيف أمـكنه أن يتسع لـكل مـا رأته وسـمعته ··· ان قلبها كنز عجيب للروحيات · ما أجمل قول داود « خبأت كلامك فى قلبى » (مز ١١٨)·

لماذا صمتت العذراء ؟ هل بدافع من التأمل ؟ أم بدافع من الاتضاع ؟ أم لانشغال قلبها بالصلاة الدائمة فما بقى لها وقت للكلام · ومن لذة حـديثها مع الله ، لم تجـد فرصـة للحديث مع الناس · أم أنها صمتت زهدا فيما قـد تسمعه من مديح الناس ، اذا فتحت فمها وتكلمت ، وكشفت ما فى أعماقها من أسرار ··· فى الواقع يا أخوتى لست أجد جوابا عن شىء من هذه الأسئلة · كل ما أستطيع أن ألفظ به هو أن أقول لأمنا القديسة :

ان فى صمتك سرا لن يرى قدس أقداسه الا الصامتون

يذكرنى صمت العذراء الى حد ما بصمت آبائنا السواح :

لا شك أن أولئك القديسين السواح قـد رأوا فى حيـاتهم الشىء الكثير من عمل الله معهم ، ومما وهبه لهم من تأملات ، وما كشفه لهم من اعلانات · ومع كل ذلك ظلت حياتهم مغلفة بالصمت · ولو تحدثوا عن خبرات يوم واحد ، أو روحيات

يوم واحد من حياتهم ، لامتلأت مكتباتنا بالمجلدات ، لكنهم رأوا حياتهم مع الله لونا من ألوان المتعة الروحية ، ولم يحبوا أن يقطعوا تلك المتعة بالحديث ... هكذا العذراء .

ان العذراء الصامتة المتأملة ، هى درس عميق لنا . .

انه درس تقدمه لنا هذه القديسة العظيمة التى تربت فى الهيكل ، وعاشت طفولتها وشبابها فى حياة الصلاة . وعندما اختارها الرب لخدمته ، كانت ممتلئة من الروح ، على الرغم من صغر سنها ...

ليتنا مثلها ، نتأمل كثيرا ، ونتحدث قليلا . ليتنا نقضى الوقت فى التأمل والصلاة ، بدلا من الكلام . **ان القديسين الذين أتقنوا الصمت ـ ومنهم العذراء ـ صمتوا مع أن كلامهم كلام منفعة . ونحن كثيرا ما نتكلم ، ولا منفعة من كلامنا ، بل قد يعثر وقد يضر** . كم هو الأحرى بنا ـ فى وقت الكلام غير النافع ـ أن نضع أمامنا نصيحة أيوب الصديق حينما قال « ليتكم تصمتون صمتا ، فيكون ذلك لكم حكمة » (أى ١٣ : ٥) . ما أجمل أن نتعلم من هذه الطفلة القديسة الوقورة التى تصرفت هكذا فى عمق الروح ، وهى فى حوالى الرابعة عشرة من عمرها ...

ان مريم العذراء قد عوضت سمعة حواء . أقامت توازنا لسمعة المرأة فى العالم . انها أرجعت للمرأة الكرامة التى فقدتها . لولاها لكان جنس المرأة عموما يعيش فى وصمة عار . أما بسبب العذراء فقد ارتفعت قيمة المرأة . وكما أنه بسبب

سقوط المرأة قد دخلت الخطية الى البشر جميعا ، كذلك بامرأة أخرى هى العذراء القديسة أشرق نور المسيح على العالم ٠

وهكذا وجدنا فى العهد الجديد كرامة واضحة للمرأة٠٠٠

نساء كثيرات كن يخدمن السيد المسيح ٠ وفى ذلك نجد أن لوقا البشير بعد أن ذكر أسماء مريم المجدلية ، ويونا ، وسوسنة ، قال « وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن » (لو ٨ : ٣) ٠ وقد ذكر الكتاب اسمى مريم ومرثا أختى لعازر ، وقال فى ذلك «وكان يسوع يحب مرثا واختها ولعازر» (يو ١١ : ٥) ٠ وقد مدح السيد المسيح المرأة الكنعانية ، وقال لها « **يا امرأة ، عظيم هو ايمانك** » (متى ١٥ : ٢٨) ٠

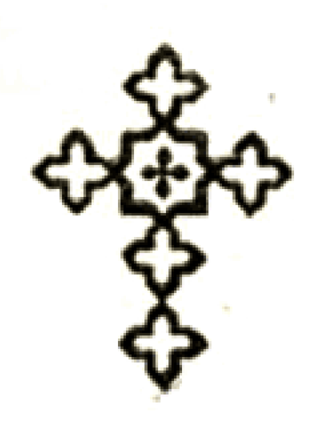
ودافع عن المرأة التى ضبطت فى الخطية ، وأظهر أنها لم تكن أشر من الرجال الذين ضبطوها ٠ ودافع عن المرأة التى بللت قدميه بدموعها ، وشرح للفريسى الذى لامها فى قلبه كيف انها أفضل منه (لو ٧) ٠ ودافع الرب أيضا عن المرأة التى سكبت الطيب على رأسه ٠ وقال لتلاميذه « لماذا تزعجون المرأة فانها قد عملت بى عملا حسنا ٠٠٠ الحق أقول لكم **حيثما يكرز بهذا الانجيل فى كل العالم ، يخبر بما فعلته هذه تذكارا لها** » (متى ٢٦ : ١٣) ٠

وحول الصليب نجد النساء يتبعن الرب فى الوقت الذى هرب فيه تلاميذه ٠ وفى هذا يقول القديس متى الانجيلى « وكانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد ، وهن كن قد تبعن المسيح من الجليل يخدمنه ٠ وبينهن مريم المجدلية ،

ومريم أم يعقوب ويوسى، وأم ابنى زبدى » (متى ٢٧ : ٥٥ ـ ٥٦) . **وتحت الصليب كانت غالبية الوقوف من النساء .** وفى ذلك يقول يوحنا الحبيب التلميذ الوحيد الذى تبع المسيح الى الصليب « وكن واقفات عند صليب يسوع : أمه ، وأخت أمه مريم زوجة كلوبا ، ومريم المجدلية » (يو ١٩ : ٢٥) ...

ويذكر لنا الكتاب كيف ذهبت النسوة مبكرات الى القبر. **وكيف أن المسيح فى قيامته ظهر أولا لمريم المجدلية** (مر ١٦ : ٩) . وكيف أنه كلف هذه المرأة المجدلية مع مريم الأخرى أن تذهبا لتبشير تلاميذه (متى ٢٨ : ١٠) . وكيف عاد فكلف المجدلية بهذه المهمة مرة أخرى (يو ٢٠:١٧) **وهكذا عرف تلاميذ المسيح بشرى القيامة أولا من المرأة .**

وما أكثر النساء اللاتى ساعدن الرسل فى خدمتهم وكرازتهم . وما أكثر أسماء النساء اللاتى ذكرهن القديس بولس فى رسائله . وفى علية صهيون كان التلاميذ يصلون ومعهم النساء (أع ١ : ١٤) . **وأول كنيسة فى العالم كانت بيت امرأة هى مريم أم القديس مرقس حيث كان التلاميذ يصلون (أع ١٢ : ١٢) .**



الفصل الرابع

دروس من حياة العمران

أعظم من ولدت النساء

كثيرون شهد لهم الناس بالعظمة ، وكانت شهادات زائفة ، أو خاطئة ، أو جاهلة ، أو متملقة . أما يوحنا المعمدان فان الذى شهد له بالعظمة هو الله وملاكه . قال عنه ملاك الرب الذى بشر بميلاده «ويكون عظيما أمام الرب» (لو١:١٥) .

وهكذا لصقت العظمة بيوحنا قبل أن يولد ، بشهادة الرب .

أعمال عظيمة قد قيلت عن يوحنا : منها أنه « يرد كثيرين الى الرب الههم » « يرد العصاة الى فكر الأبرار » « يهيىء للرب شعبا مستعدا » « يهيىء الطريق قدام الرب » يتقدم أمامه بروح ايليا وقوته » . وفى كل ذلك نسأل الملاك الذى بشر بميلاده عن سر هذه العظمة العجيبة ، فيجيبنا بقوله : انه

« **من بطن أمه يمتلىء بالروح القدس** » (لو ١ : ١٥)

حقا ، هذه هى سر عظمة يوحنا . سمعنا فى الكتاب المقدس أن الروح القدس حل على كثيرين : حل روح الرب على شمشون وعلى شاول وعلى داود وعلى كثير من الأنبياء . ولكن لم نسمع مطلقا عن أحد منهم أنه «من بطن أمه» قد امتلأ من الروح القدس . هذا الأمر قد اختص به يوحنا المعمدان ، لم **يسبقه اليه أحد** .

ومن نتائج هذا الامتلاء انه ارتكض بابتهاج فى بطن أمه تحية للجنين الالهى وهو فى بطن العذراء ... لقد أوتى المعرفة التى يميز بها الرب وهو مايزال جنينا فى الشهر السادس فى بطن القديسة اليصابات . بل أنه أيضا أوتى روح العبادة وهو فى بطن أمه . أمر لم نسمعه عن أحد من الأنبياء أو القديسين من قبل ... لقد عرف المسيح ، وآمن به ، وسجد له فى البطن ، قبل أن يولد المسيح ...

قالت عنه أمه اليصابات « ارتكض الجنين بابتهاج فى بطنى » . لقد ابتهج بالرب ، فرح به . فرح بالخلاص الذى كان مزمعا أن يأتى الى العالم من بطن العذراء !...

عجيب مثل هذا الابتهاج من جنين لا يدرك ولا يعى ! ولكن يزول العجب اذ كان هذا الجنين ممتلئا من الروح القدس « والروح يفحص كل شىء حتى أعماق الله » (١ كو ٢ : ١٠) . هو بالروح تحرك فى بطن أمه . وهو بالروح آمن وابتهج ... حقا انه كان عظيما أمام الرب ...!

وعظمة يوحنا لم يشهد بها ملاك الرب فقط عندما بشر زكريا ، انما أكثر من هذا شهد بها رب المجد ذاته ولم يقل عن يوحنا انه عظيم فحسب ، وانما قال :

« الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان » (متى ١١ : ١١) .

الرب نفسه يشهد عنه انه أعظم من ولدته النساء . هل هناك شهادة حصل عليها انسان فى طول الأرض وعرضها ،

أسمى وأعلى من هذه الشهادة ؟! لا توجد . يضيف اليها الكتاب لقبا آخر أطلق على يوحنا ، فقيل انه « ملاك » ، أو هو الملاك الذى يهيىء الطريق قدام المسيح (مر ١ : ٢) . وشهد بهذا اللقب المسيح نفسه (متى ١١ : ١٠) .

بل شهد المسيح أيضا عن يوحنا أنه « أفضل من نبى » ... فقال للجموع « ماذا خرجتم الى البرية لتنظروا : أنبيا ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبى » (متى ١١ : ٩) ... كان يوحنا ملاكا ، وكان نبيا . وكان أيضا كاهنا ، من بنى هارون ، ابنا لزكريا الكاهن . وكان صاحب المعمودية العظيم.

ولعل أعظم ما فى حياة يوحنا أنه عمد المسيح له المجد... أتى اليه السيد المسيح ليعتمد منه كباقى الناس ... ومن أجل الطاعة قام يوحنا بعماد المسيح . واستحق لذلك أن يرى الروح القدس بهيئة حمامة ، وأن يسمع صوت الآب قائلا « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » (متى ٣ : ١٦ ، ١٧) وهكذا تمتع بالثالوث الأقدس ، روحا وحسا ...

وتظهر عظمة يوحنا المعمدان فى أنه تمم عمله العظيم فى مدة قصيرة ، لعلها ستة أشهر أو أزيد قليلا .

هذه الستة أشهر هى الفرق بين عمره وعمر المسيح ، وكل منهما بدأ عمله فى نحو الثلاثين من عمره . وخدم يوحنا هذه الستة أشهر . ولما ظهر المسيح بدأ يختفى هو . وفى هذه المدة الوجيزة استطاع يوحنا أن يهدى كثيرين الى التوبة،

وأن يشهد شهادة قوية للرب ، وأن يمهد الطريق أمام المسيح وأقنع العالم كله بأن **قوة الخدمة ليست فى طولها ، وانما فى عمقها ، فى مدى فاعليتها وتأثيرها ...**

أليس عجيبا أن كثيرا من الخدام النافعين لا يتركهم الرب يخدمون طويلا . يكفى أنهم قدموا عينـة للخدمة ، وعينـة للبر . قدموا شهادة للرب ، وقدموا مثالا يحتذى . واكتفى الله بما فعلوه ، وأطلقهم بسـلام ... تماما مثل تلميذ نابغ جلس أمـام أساتذته فى امتحـان شفهى . فسألوه سـؤالا عميقا ، فأجاب اجابة ممتازة ، ودعوه يمضى ، غير محتاجين أن يسألوه فى المقرر كله . يكفى ما أظهره من ذكاء وفهم... كذلك الله لا يهمه كمية الخدمة بقدر ما يهمه نوعها . وقـد قـدم يوحنـا مثالا ممتازا للخدمة الجـادة ، ومثـالا ممتازا للروحيات العميقة ، تنسم منه الرب رائحة الرضى ، وصرفه بسلام ...

وتبرز عظمة يوحنا ، فى أنه عاش بكماله ، على الرغم من أن عصره كان مظلما ...

كان عصرا شريرا ، وكان أشر ما فيـه قادته الروحيون من أمثال الكهنة ورؤساء الكهنة والشيوخ والكتبة والفريسيين والصدوقيين ... وقد قام فيه من قبل بعض المعلمين الكذبة مثـل ثوداس ويهوذا الجليـلى اللذين تـكلم عنهما غمالائيل (أع ٥) ، وقد أزاغا كثيرين ... وكان عصرا يمتاز بالحرفية والبعد عن الروح ، ويتميز رجال الدين فيه بالرياء والكبرياء

وعلى الرغم من وجود أضواء بسيطة مثل حنة النبية وسمعان الشيخ وزكريا الكاهن وأمثالهم ، الا أن العصر فى مجموعه كان فاسدا . يكفى أن الرب وصفه بأنه «جيل فاسق وشرير» (متى ١٢ : ٣٩) .

ولكن يوحنا لم يتأذ من فساد جيله ، بل على العكس كان بركة لجيله وسبب هداية وتوبة ...

ومن عظمة يوحنا أنه كان ابن الجبال ، كان رجل برية ، ورجل زهد ونسك . وكل ذلك ترك أثره فى حياته وفى صفاته .

طارده الموت من صغره ، عندما قتل هيرودس الأطفال . فأخذوه الى البرية . وعاش فى البرارى طوال عمره « ينمو ويتقوى بالروح » (لو ١ : ٨٠) . عاش ناسكا « خمراً ومسكرا لا يشرب » (لو ١ : ١٥) . « يلبس وبر الابل ، ومنطقة من جلد على حقويه . ويأكل جرادا وعسلا بريا » (مر ١ : ٦) . وهكذا تدرب فى البرية على حياة الزهد . وصدق مار اسحق حينما قال « ان مجرد نظر القفر يميت من القلب الحركات العالمية » .

وفى البرية تعلم الصلاة والتأمل ، وتعلم الشجاعة والصلابة ، وتعلم الايمان أيضا . أعده الله فى مدرسة البرية، كما أعد العذراء فى الهيكل . فنشأ شجاعا لا يهاب انسانا ، يصلح أن يكون صاحب رسالة . وكانت رسالته هى اعداد الناس للتوبة ...

ومن عظمة يوحنا المعمدان ، أنه كان شجاعا جريئا ، يقول الحق بكل قوة، مهما كانت النتائج. حقا ان الزاهدلايخاف.

أخطأ هيرودس الملك • فمن كان يجرؤ أن يوبخه أو يواجهه بكلمة الحق ؟ من الذى يعلق الجرس فى عنق القط؟! ليس غير يوحنا المعمدان • هو الوحيد الذى استطاع أن يقول لهيرودس « لا يحل لك ••• »

القاه هيرودس فى السجن فلم يهتم • انما يخاف السجن انسان يحب متع العالم وملاذه، ويخشى أن يحرمه السجن منها. أما انسان ناسك كيوحنا ، زهد كل ملاذ العالم ، وتركها بارادته ، ففى أى شيء يتعبه السجن ؟!

ربما يقال له : ستتعطل خدمتك بالسجن • لا ترشد ولا تعمد ، ولا تهدى الناس الى التوبة • أما يوحنا فلا يهتم ويقول : ان كان هذا الباب مفتوحا من الله ، فلا يستطيع أحد أن يغلقه • **ان كان الله يريد يوحنا أن يبشر ، فسيبشر ، ولا يستطيع أحد فى الوجود أن يمنعه • وان كان الله لا يريد، فلتكن مشيئته** • بهذا المنطق كان يوحنا يشهد للحق • وليحدث بعد ذلك ما يكون •

وكان ما كان ، وقطعت رأس يوحنا • ولكن هذا الصوت الصارخ فى البرية ، ظل يدوى فى اذن هيرودس يزعج ضميره وأفكاره ونومه وصحوه ، ويقول له فى كل وقت « لا يحل لك » •

ان صوت يوحنا لم يمت بموت يوحنا • بل ظل مدويا ضد أعداء الحق ••• وظل هيرودس يخاف يوحنا حتى بعد

موته ••• فعندما أحس هيرودس بكرازة المسيح القوية وبمعجزاته ، « قال لغلمانه : هذا هو يوحنا المعمدان قد قام من الأموات ، ولذلك تعمل به القوات » !! (متى ١٤ : ٢) •

ان يوحنا قد عامل هيرودس الملك كما عامل باقي الناس. كان يدعو الكل الى التوبة ، سواء فى ذلك الملك أم الجند أم القادة أم أفراد الشعب ••• الكل سواء أمام شريعة الله • الكل فى حاجة الى التوبة • الملك محتاج الى من يوبخه على خطيته ، كما يحتاج الفرد العادى ••• لكى يتوب ••• وان لم يتب الملك ، فيكفى يوحنا أنه شهد للحق وأنه نادى بالتوبة •••

كانت معموديته هى معمودية التوبة ، ورسالته هى دعوة للتوبة • ينادى فى الناس « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢) • وكان شديدا فى دعوته ، يوبخ وينتهر ويبكت • وكان الناس يقبلون تبكيته بقلب مفتوح • ونجح يوحنا فى خدمته • « خرج اليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن • واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم » (متى ٣ : ٦) •

ولما رأى الجموع قد كثرت حوله ، حول أنظارهم منه الى المسيح • بذل كل جهده لكى يختفى هو ، ويظهر المسيح • ولعل هذه هى أبرز فضائل يوحنا وأقدس أعماله •••

كان يقول لهم « أنا أعمدكم بماء للتوبة • ولكن الذى يأتى بعدى ••• سيعمدكم بالروح القدس ونار » (مت٣:١١)

« أنا عمدتكم بالماء ، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس » (مر ١ : ٨) • وكما كان يجذبهم الى معمودية أخرى أفضل من معموديته ، كان يجذبهم بالأكثر الى صاحب تلك المعمودية، الذى هو أقوى منه وأعلى وأقدم •

كان ينادى فى الناس « يأتى بعدى من هو أقوى منى ، الذى لست أنا أهلا أن أنحنى وأحل سيور حذائه » (مر ١ : ٧) « يأتى بعدى رجل صار قدامى ، لأنه كان قبلى » (يو ١ : ٣٠) • « لست أنا المسيح ، بل انى مرسل أمامه » (يو ٣ : ٢٨) •

لم يكن تفكير يوحنا منحصرا فى ذاته ، وانما فى المسيح• لم يكن يبحث عن مجد ذاته ، وانما عن ملكوت المسيح • كان يدرك تماما أنه ليس هو النور ، وانما ليشهد للنور (يو ١ : ٨) • اذن فهو مجرد انسان جاء للشهادة ، ليشهد للنور ، ليؤمن الكل بواسطته • كان يعرف أنه مجرد سابق أمام موكب الملك الآتى ، كل عمله أن يعد الطريق للملك • واستطاع يوحنا أن يحفظ طقسه ولا يتجاوز حدوده •••

كانت الذاتية ميتة عند يوحنا • لم يكن لذاته وجود فى خدمته • كان المسيح بالنسبة اليه هو الكل فى الكل • ليته يكون درسا للخدام الذين يبنون ذواتهم على حساب الخدمة ، أو يتخذون الخدمة مجرد مجال لاظهار ذواتهم !!

أروع كلمة تعبر عن خدمة يوحنا هى قوله عن المسيح « ينبغى أن ذاك يزيد ، وأنى أنا أنقص » (يو ٣ : ٣٠) • هذه العبارة هى سر نجاح خدمته ، وهى المبدأ الذى سار

عليه فى كل خدمته ··· لذلك عنـدما بدأت كرازة المسيح وأخذت تكتسح خدمة يوحنا ، ابتهج يوحنـا وفرح · وقال « اذن فرحي هذا قد كمل » « من له العروس فهو العريس··· الذى يأتى من فوق هو فوق الجميع ··· الذى يؤمن بالابن له حياة أبدية ، والذى لا يؤمن بالابن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يو ٠ : ٢٦ ـ ٣٦) ·

حالما تقابل يوحنا مع المسيح قال له « تفضل‌هذه العروس انها لك · أنا تسلمتها لمجرد أن أوصلها لك · حقـا انه من واجبى أن‌أوصلها لك نظيفة ومزينة، وأنادى‌لها أولا بالتوبة·· وأقول لها : أيتها العروس · هوذا العريس مقبل، فاستعدى للقائه » · « اسمعى يا ابنتى ، وانظرى وأميلى سمعك، وانسى شعبك وبيت أبيك · لأن الرب قد اشتهى حسنك · لأنه هو ربك ، وله تسجدين» (مز٤٥:١٠ر١١) · حالما جاء المسيح ، سلمه العروس ، وانسحب من الميدان··· وكصديق للعريس وقف ينظر ويفرح ···

على أن أعظم مـا فى حياة يوحنا كان هو عماده للمسيح. وفى العماد نرى موقفين عظيمين فى الاتضاع ، للرب ويوحنا.

يوحنا يقول للرب « أنا محتاج أن أعتمد منك » ··· أنا أيضا خاطىء ، أحتاج الى معمودية التوبة معترفا بخطاياى، كهؤلاء الباقين ··· وأنا محتاج أن أعتمد منك أنت ··· اننى أمام هؤلاء الناس معلم ، أمـا أمامك أنت ، فأنا تلميذ بسيط. **أمام الناس أنـا نبى وملاك ، ولكن أمامك أنـا عبد وتراب ·**

هم يعتمدون منى ، وأنا اعتمد منك ... حقا اننى من سبط لاوى ومن بنى هارون ، كاهن ابن كاهن ، وأنت حسب الجسد من سبط يهوذا وليس من سبط الكهنوت . ولكنى لا أنسى أنك مصدر كل سلطة كهنوتية ، أنت معطى الكهنوت ومنشوء، أنت كاهن الى الأبد على طقس ملكى صادق كما تنبأ داود فى المزمور (مز ١١٠ : ٤) لذلك أنا محتاج أن أعتمد منك .

ان كل العظمة التى كانت تحيط به ، لم تنسه ضآلة ذاته التى شعر بها أمام المسيح ... وكأنه يقول : من أنا حتى أعمد المسيح ؟! كما قالت أمه « من أين لى هذا أن تأتى أم ربى الى » ... أنا مجرد تراب ورماد ، كيف أضع يدى على رأس الرب . خالق هذه اليد ؟!

ان كل الآلاف الذين يأتون اليه ، لم ينسوه حقيقة نفسه. وكل التوبيخات التى يوبخ بها الناس الخطاة ، لم تنسه توبيخا يوجهه الى ذاته ، كشخص ـ أمام الله ـ يشعر أنه خاطىء ... وهكذا قال للرب « أنا محتاج أن أعتمد منك » . وكانت هذه العبارة تحمل اعترافا ضمنيا ...

نلاحظ أن الرب لم يقل له «كلا ، انك غير محتاج للعماد» بل قال له « اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر » (متى ٣ : ١٥) . « حينئذ سمح له » !!

ونحن نقف مذهلين أمام عبارة « اسمح الآن » وهى تخرج من فم الرب موجهة الى واحدة من عبيده . انه تعبير مؤدب ولطيف ، ليتنا نأخذه تدريبا روحيا لنا ... يقول.

لعبده « اسمح الآن » . أنا احتاج الى سماح منك ، اطلب موافقتك . لست آمرك ، وانما اسـمح . ويقول الـكتاب « حينئذ سمح له » . مـا أعجب هذا . أى شرح لى سيفقد هذا الموقف قوته . لذلك سأصمت عنه ...

انه درس فى الاتضـاع وآداب الحديث ، يقدمه لنا عمـاد المسيح ، لنتعلم ، ونتدرب ...



رقم الايداع بدار الكتب ١٥٩٥ لسـنة ١٩٧١

كلما نتأمل فى ميلاد السيد المسيح وعماده ،

وما أحاط بهذين الحدثين من أسرار وأعماق ،

يلح على قلوبنا فكر لا نستطيع مقاومته :

أن نضع أمامنا فى ثمار تلك التأملات



وكذلك فاعلية العماد

سنقرأ فى محاضرات هذا الكتيب ،

عن دروس روحية فى الميلاد والغطاس .

ويبقى علينا أن نحول الدروس الى حياة

١١

مطبعة دار العالم العربى

الثمن ٥ قروش